الإمام الجليل

محمد أبو زهرة

٥٣

زهرة التفاسير

دار الفكر العربي
١٣٦٥ هـ ١٩٤٦ م

إهـــــــداء٢٠٠٦

المرحوم / علي حسن عبد الكافي

الإسكندرية

السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ وإن هذا الكلام فيه استعارة تمثيلية إذ شبه الله تعالى حالهم بحال من بنوا صرحًا وشيدوه، وأقاموا قواعده على عمد وأسطوانات، وأحكموا بنيانه حاسبين أنه يبقى على مدى الأزمان، ولكن أتى الله تعالى بنيانهم بأمره من قواعدها، فتداعت وانهارت فصارت هباءً منبثًا، فخر عليهم السقف من فوقهم، وماتوا تحت أنقاضه، وبذلك كان ما بنوه للحياة ومتعها، وتدبير الأمور للحق صار عليهم وبالا، وسببا لهلاكهم وأتاهم العذاب به؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ﴾، أى أتاهم من المكان الذى يشعرون أن فيه مأمنهم فكان فيه مهلكهم وفناؤهم.

وهذا يذكر المشركين فى عصر النبى ﷺ بأن ما يدبرونه ضد النبى ﷺ من تدبير يريدون به إخفاقهم لهم سيكون من عوامل نصره، وإن الله محيط بهم، وبما يدبرون.

وإن هذا عذاب الدنيا للمشركين، وقد تبين فى عاد وثمود، ومدين، وفرعون وملئه، ثم يوم القيامة يكون الخزى والجزاء؛ ولذا قال تعالى:

﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ (٢٧)﴾.

﴿ثُمَّ﴾ هنا فى معناها، وهو الترتيب والتراخى، وهو هنا بمعنى الإمهال من غير إهمال، وذلك يطوى فى نفسه التهديد والإنذار وهو فى ذاته وعيد بالخزى يوم القيامة، وقوله تعالى: ﴿يُخْزِيهِمْ﴾ بإسناد الفعل إلى الله تعالى فيه تعظيم لذلك الخزى، وذلك الخزى يشمل فضيحتهم على الأشهاد، لتذهب الكبرياء الآثمة، وتشمل الذل بعد الاستكبار، وتشمل العذاب؛ لأن العذاب خزى فى ذاته، كما قال تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (١٩٢)﴾ [آل عمران] وقد كان من إخزاء الله لهم أن كشف حالهم مع الأوثان التى أشركوها فى العبادة مع الله تعالى، وأنها لا شيء وأنها تهرب منهم، ولا تجد لها مهربا؛ ولذا قال لهم: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ﴾.

وهنا نلاحظ ثلاثة أمور بيانية:

الأمر الأول ـ إضافة الشركاء إليه سبحانه وتعالى هو من باب الإضافة لأرقى ملابسة إذ هم قد عبدوها مع الله تعالى، فجعلوها لله شركاء بزعمهم، فكانت الإضافة أخذا بهذا الزعم تبكيتا لهم، إذ كيف يكون المخلوق شريكا للخالق، وكيف تكون الحجارة التى لا تنفع ولا تضر شريكة للنافع الضار، رب السموات والأرض، والحى القيوم القائم على كل ما فى هذا الوجود.

الأمر الثانى ـ فى قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ**﴾، أى تعادون الحق والأنبياء والدعاة المرشدين فيها، أى تكون فى شق والحق فى شق، و(فى) هنا معناها المحل، أى محل المشاقة فيها، فيتنازعون، حيث لا مكان للمنازعة؛ لأنها منازعة بين الخالق، وما هو أدنى المخلوقات، لأنها حجارة لا تنفع ولا تضر.

الأمر الثالث ـ أن ثمة قراءة بكسر النون، والكسر يدل على ياء المتكلم، أى تشاقوننى فيها أى تنازعوننى أنا الله الخالق رب الوجود فيها، ويكون فى هذه القراءة معنى آخر جليل، وهو أن منازعة الرسل منازعة له سبحانه وتعالى.

ولقد شهد عليهم بهذا الخزى رسلهم الذين أرسلوا إليهم وأتباعهم، والملائكة ﴿**قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ**﴾، والذين أوتوا هم النبيون، فقد أوتوا علم النبوة، والذين اتبعوهم فقد اقتبسوا من علم النبوة، والملائكة، فقد أوتوا علم الرسالات بمقتضى تكوينهم، فهم عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

وشهادة أولو العلم: ﴿**إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ**﴾، أى الخزى والسوء على الكافرين بسبب كفرهم وعنادهم، ومشاقتهم لله ولرسوله، وأهل الحق، وقد قال تعالى فيهم:

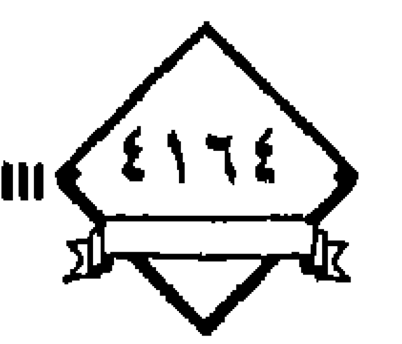
﴿**الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨)**﴾.

﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ﴾ هم الكافرون، فهذه الجملة عطف بيان أو بدل مما قبلها، وهذا يتضمن حالهم عند الوفاة، ووصفهم الأصلى الذى أرداهم فى الجحيم، وهو أنهم ظالمون لأنفسهم، وذلك الظلم بشركهم، فالشرك فى ذاته ظلم، وهو ظلم للنفس؛ لأنه انحراف فيها، وعوج فى تكوينها يشبه عوج الأعضاء بعد استقامتها، وهو ظلم للعقل والفكر إذ يحطه من عبادة الله إلى عبادة الأحجار، وهو يؤدى إلى ظلم الأبرار، والظلم يعود على الظالم، فمرتعه ونهايته عليه، فكأنه فى الابتداء انتهى إليها.

وقوله تعالى: ﴿فَأَلْقَوُا السَّلَمَ﴾ وهو الاستسلام والخضوع والإخبات بعد أن عتوا واستكبروا، والفاء للتعقيب، أى أنهم بعد أن توفتهم الملائكة فوراً ألقوا السلم والخضوع، وانتقلوا من كبرياء ظلمة إلى ضعة صاغرة مستكينة، وعبَّر بـ(ألقوا) والإلقاء لا يكون إلا للأجسام للإشارة إلى أنهم انحطوا كما تنحط الأجسام من أعلى إلى أسفل، ونسوا ما كانوا يعملون، وقالوا: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ﴾، و(مِنْ) لاستغراق النفى، أى ما كنا نعمل أى سوء، ونسوا أنفسهم ونسوا أعمالهم لقد زال كبرهم وغطرستهم، فزالت شخصيتهم الظالمة، وحسبوا أنهم لم يفعلوا سوءا.

﴿بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بلى تدل على الإضراب عن قولهم، والقائل هم الملائكة أو أهل العلم الذين أوتوه من النبيين أو أتباعهم، وعندى أن القائل هو الله تعالى، لأنه لم ينسب القول إلى غيره، وهو القائل المتولى أمرهم ابتداء وانتهاء.

وقد أكد الله تعالى علمه بالوصف وبإن وبالجملة الاسمية وقوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (ما) فيه موصولة بمعنى الذى، أى بالذى كنتم تعملونه، وهو استحضار لهذا العمل كأنه حاضر مهيأ يرى، وقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، أى عملكم الذى استمررتم عليه، ولم تفارقوه حتى تستبين به خطاياكم.



وقد بين بعد ذلك العقاب الذى ينتظرهم، فقال:

﴿ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٢٩) ﴾.

(الفاء) هنا فاء السببية، أى أن ما قبلها سبب لما بعدها، فبسبب ظلمهم أنفسهم بما قدموا من ظلم للفِطَر، وشرك، يدخلون النار، وجاء إدخالهم بصيغة الأمر، للدلالة على أنهم مجبرون فى هذا الدخول لا مخيرون، وجاء بكلام يدل على أنهم دخلوا، ولم يقل (أُدخِلوا جهنم)، للتهكم بهم كأنهم اختاروها، وإنهم كذلك فقد اختاروها من يوم أن اختاروا الكفر على الإيمان واستكبروا على الحق فلم يؤمنوا به مع قيام بيناته ودلائله.

و﴿ أَبْوَابَ جَهَنَّمَ ﴾ كناية عن سعتها، وسهولة الوصول إليها لمن كتبت عليهم وأردوها بأفعالهم، كما قال تعالى: ﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ (٤٤) ﴾ [الحجر] وإنهم خالدون فيها لا يزيلونها، وخالدين فيها حال، والخلود وهو الاستمرار فى البقاء بها، وقد بين سبحانه أنها أسوأ مقام، فقال: ﴿ فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾.

و(الفاء) للإفصاح عن شرط مقدر، أى إذا كانوا سيدخلون جهنم خالدين، فلبئس مثواهم، و(اللام) لتأكيد ذمها، وأظهر فى موضع الإضمار، فقال: ﴿ فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾، ولم يقل بئس مثواهم، للدلالة على أن الكبر عن الحق وعدم الاستماع إليه، والإصغاء لأهله ـ هو الذى أودى بهم.

والتعبير بكلمة ﴿ مَثْوَى ﴾ وهى الإقامة، وغالبا ما تكون المختارة؛ لأنها طيبة من قبيل التهكم بهم.

ولقد قال ابن كثير: إن الآية تدل على أنهم يدخلون النار، أو يكونون فى حرارتها بمجرد قبرهم، وأنه تكون أرواحهم فى عذاب بحرارة جهنم، حتى يكون البعث فتلتقى الأجسام بالأرواح، ويكون العقاب، ويشير إلى ذلك قوله تعالى فى آل فرعون: ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ

﴿الْعَذَابِ (٤٦)﴾ [غافر] اللهم اغفر لنا، وجنبنا أسباب النار، وانظر إلينا يوم لقائك، وإن لم نكن لذلك أهل.

المتقون

قال تعالى:

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ (٣٠) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (٣١) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٢)﴾

هذه مقابلة بين الإيمان والتقوى، والكفر والاستكبار، قيل للمستكبرين ماذا أنزل ربكم قالوا: أساطير الأولين ولنَتْلُ الآية السابقة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٤)﴾ وسئل هذا السؤال نفسه للمتقين، فقال تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا﴾ وهذا فرق ما بين التقوى والفجور، الفاجر لا يهمه أن يقول الحق أو يفحصه، والمتقى الطيب محب للحق، ويتحراه، فإن وجده اطمأن إليه، واستقام على طريقه.

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾، الفاعل المحذوف هنا هو الذى ذكرناه فى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٤)﴾ وقد كان الجواب غير الجواب الأول، وإن كان السؤال واحدا بيد أن السؤال هنا للمتقين وهناك

«للمستكبرين» كان جواب المتكبرين يتناسب مع ضلالهم، وكان جواب المتقين ﴿خَيْرًا﴾، أى أنزل خيرا، وذلك يشمل القرآن وما فيه من شرائع وما جاء به النبى ﷺ من أحكام وشرع صالح فيه خير البشرية؛ ولذلك نجد الجواب هنا خبرا منصوبا بالفعل، بينما نجد الجواب فى الأولى مرفوعا، وهو أساطير، والفرق أن الجواب جواب مؤمنين يؤمنون بالتنزيل، فيجيبون من غير تلعثم واضطراب، بينما الجواب فى الأولى جواب كافرين بالتنزيل وفيه التواء وتلعثم لأنه باطل، والباطل دائما لا نور فيه، ولا انكشاف.

ووصفوا المنزَّل بأنه خير، ويشمل القرآن كما ذكرنا والشرائع الإسلامية كلها، وهى خير فيه صلاح الدنيا والآخرة، ثم قال تعالى: ﴿... **لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ** ... (١٠)﴾ [الزمر] يصح أن تكون هذه الجملة من الله تعالى فيها تتميم جواب الذين اتقوا، والظاهر أنها من تتمة إجابة المؤمنين وقولهم، وهم بهذا يرغبون فى الإيمان، ويرغبون فى الإحسان، للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة، أى خصلة حسنة، وأثر حسن، فالثمرة من جنس العمل، فإذا كان العمل حسنا كانت الثمرة حسنة، وهل ينتج الخير إلا خيرا، وهل ينتج الإحسان إلا إحسانا.

والعمل الصالح ينال به الشخص الخير الحسن؛ لأنه يكون بنية خالصة، والإخلاص فى ذاته أمر حسن لا يذوقه إلا الذين أخلصوا دينهم لله ولم يدنسوا قلوبهم بفساد، والإخلاص يدفع إلى الكلم الطيب، والكلم الطيب يدفع إلى العمل المستقيم والسلوك القويم، وكل هذا خير، وإذا كانت متاعب من عمل الخير، فإن الصبر عليها نعمة وحسنة يشعر بها الأبرار الذين يفتدون الحق بأنفسهم وبالبلاء ينزل بهم.

وقال تعالى: ﴿**وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ**﴾، أى ثواب دار الآخرة، وإنما أضيف الخير إلى ذات الدار، لأنها كلها خير، فلا ينال الطيبون فيه إلا طيبا، ثم قال تعالى: ﴿**وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ**﴾، (اللام) لام التوكيد، وإنها كل موضع الثناء، والحمد، وهى نعم الدار ، وذكر المتقين بالإظهار بدل الإضمار للإشارة إلى أن

التقـوى هى السبب فى هذا الجزاء، وللدلالة على أن ثواب الآخـرة خير للمتـقين دون غيرهم.

ثم بين سبحانه ثواب الآخرة أو بعضه، فقال.

﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (٣١) ﴾.

﴿ جَنَّاتُ ﴾ بدل أو عطف بيان لدار المتـقين، إنها ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ ﴾ بها إقامة دائمة ثابتة يجـتمع فيهـا جمال المنظر، والرى، ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ وتلك متعـة النظر، فيكون خرير الماء مع ما يحـوطه من خضرة تسر الناظريـن بنضرتها، وترتاح النفـوس بمنظرها، وبيـن بعد ذلك أن هذا المـنظر الجمـيل الذى يشـرح الصـدر معه الـتمكن من كل مـا يحبـون؛ ولذا قـال بعـد ذلك: ﴿ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ ﴾ من خـير، وما يريـدون من طيب لا يمنع عنهم شىء، وإذا كانـوا قد حرمـوا فى الدنيا من مـال ونسب فهم فى الآخرة ممكنـون، وإذا كانوا قد صـبروا أنفسهم لله تعالى فإن الله تعالى قدر عناءهم بأن مكنهم من كل ما يريدون، منطلقة إرادتهم ومشيئتهم، وقال تعالى فى آية أخرى: ﴿ ... وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ... (٧١) ﴾ [الزخرف].

﴿ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴾، أى كهذا الجـزاء الذى نراه للذين اتقوا ربهم يجزى الله المتقين دائمًا، وهذا تشبيه أو تصوير لمعنى المكافأة الذى يكافئ الله تعالى بها عباده، فهو تصوير للمعنى الكلى فـى جزاء الله للمتقين بهذه الحال التى ينالها المتقون، وهـم المحسنون الذين أتقنوا أعمالهم، بإحكـامها وأحكام الخيـر وإحسانه يكون أولا بتطهيـر النفس من الأهواء، والآثام، ويكون بالنية الصـادقة الصافـية، وثانيا بالعمل الصالح.

وإذا كان سبحـانه قد بين كيف يستقبل المستكبـرون عندما تتوفاهم الملائكة، فقد بين أيضا ما يستقبل المخلصون، فقال:

﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٢) ﴾.

ولقد وصف الله سبحانه وتعالى المستكبرين بأنهم ظالمون أنفسهم، وهم في هذه الحال التي أوقعتهم في رجس وفسوق، فإنه سبحانه قد وصف المتقين بأنهم طيبون، والطيب ضد الخبيث، وضد الشرير، فوصفوا بأنهم طيبون؛ لأنهم خلصوا من الشرك والظلم والاستكبار، ولأنهم صالحون في ذات أنفسهم زكية نفوسهم طيبة راضية مرضية، وطيبة حياتهم من بعد.

والطيبة وصف للنفوس المطمئنة الراضية غير المعتدية الآثمة، وهو وصف جامع لكل الخلال الباطنة والظاهرة يوصف به كل الذين لا يحملون ضغنا، ولا يحقدون، ولا يعتدون، وينصرفون لذات أنفسهم يصلحونها، ويراقبونها، ولا يكون منهم للناس إلا ما فيه مصلحتهم، و﴿ طَيِّبِينَ ﴾ حال من المفعول، وقوله تعالى: ﴿ يَقُولُونَ ﴾ في الآية حال من الملائكة، والمعنى يتوفونهم قائلين لهم: ﴿ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ﴾ إيناسا لهم بالتحية ودعوة لهم بالأمن والاطمئنان، وبث روح الأمان، وبشرى لهم، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) ﴾ [فصلت] ويقولون مع هذا السلام المؤمن المبشر: ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ الباء باء السببية، أي لسبب عملكم الذي عملتموه غير مدخرين في سبيل الخير، وقوله تعالى: ﴿ كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾، تدل على استمرار العمل، لأن كان تدل على الماضي مع الدوان في مثل هذا المقام، كقوله تعالى: ﴿ ... وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا (٩٩) ﴾ [النساء]، وقد جمع بين الماضي في (كان) والمستقبل في ﴿ تَعْمَلُونَ ﴾، فكان دالا على استمرار عملهم، وكان صالحا، والله تعالى يجزيهم أحسن الجزاء.

تفكير المشركين

قال تعالى:

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٣٣) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٣٤) وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٣٥)﴾

جاءتهم المعجزة الكبرى التى تتحدى الأجيال كلها، وتحداهم الله تعالى بها أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا، فطلبوا معجزات حسية كمعجزات الأنبياء السابقين، فجاءتهم، انشق القمر، فقالوا: سحر مستمر، أى أعينهم سحرت فتبين كذبهم، لأن المسافرين رأوه كذلك، وجاءهم بالإسراء من مكة إلى المسجد الأقصى، وذكر لهم الأمارات الدالة.

أتى لهم بالمعجزة الكبرى، وهى التى تتناسب مع خلود شريعته، إذ يبقى صامدًا يقارع الزمان والأقوام ويقيم لهم الدليل على أنه من عند الله، ولكنهم أرادوا آية مادية، فجاءتهم الآية تلو الآية، ومع ذلك لم يؤمنوا؛ ولذلك قال تعالى:

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾.

لقد طلبوا أن يكون معه ملك، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ (٩)﴾ [الأنعام]، ﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾، أى العذاب

المستأصل، كما نزل بقوم لوط، وعاد وثمود، وفرعون، وقد ذكر أنه فعل ذلك بالذين من قبلهم وأنهم طلبوه فأجيبوا، فقال: ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أنهم استهانوا، وكابروا، ولجوا فى إنكارهم، وطلبوا استعجال أمر الله فيهم فعجل، ولكنه لم يفعل ذلك مع أمة محمد ﷺ، فهو لم يرسل لجيل يستأصله إذا لم يؤمن، بل أرسل للأجيال كلها فإذا كفر جيل، كان رجاء الإيمان فى جيل يليه، كما قال ﷺ فى قومه ـ وقد آذوه ـ، وبين الله تعالى على لسان الملائكة أنه ينزل بهم ما يريد، فقال خاتم النبيين: «**إنى لأرجو أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله**»[1].

وقوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ الاستفهام فيه للإنكار، وهو وصف لحالهم فى كفرهم بالآيات، أى حالهم أنهم لا ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتيهم أمر الله.

وقد بين الله أن أمره نزل بمن سبقوهم مثل قوم نوح، وعاد وثمود، وأصحاب الأيكة، وفرعون ذى الأوتاد أن ذلك لم يكن ظلمًا من الله لهم، بل كان ظلما من أنفسهم لأنفسهم، فقال عز من قائل:

﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

إن المذنب إذا نزل به عقاب ذنبه لا يقال إن من أنزل به العقاب هو الذى ظلم، إنما الظالم هو من ارتكب سبب العقاب فهؤلاء بارتكابهم سبب العذاب الذى جاء بأمر الله ظلموا أنفسهم، وهنا أمران بيانيان نشير إليهما:

الأمر الأول ـ التعبير بـ ﴿كَانُوا﴾ فهو دال على استمرارهم فى أسباب ظلم أنفسهم من إنكار وجحود ومكابرة.

الأمر الثانى ـ تقديم كلمة ﴿أَنفُسَهُمْ﴾، على ﴿يَظْلِمُونَ﴾ للإشارة إلى أن مما ارتكبوا من آثام كان يقع على أنفسهم، لا على غيرهم وللاهتمام والتخصيص.

(١) متفق عليه وقد سبق تخريجه.

وقد أكد سبحانه هذا المعنى السامى فقال:

﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

الفاء فيها بيان ترتيب الإساءة على ما ارتكبوا من سيئات، فهى تبين كيف ظلموا أنفسهم، فقال: ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا ﴾، أى فأصابهم جزاء سيئات ما عملوا، فالكلام على تقدير مضاف، وفى هذا التفسير بيان لأنهم ظلموا أنفسهم بأن تسببوا فى العذاب الذى نزل، فكانوا به ظالمين لأنفسهم، وحذف المضاف مع بقاء المضاف إليه للإشارة إلى الجزاء كالسيئات تماما، حتى كأنه هو.

وإن السيئات تترادف يجىء بعضها تلو بعض، حتى تتراكم فيظلم القلب وحينئذ تفسد كل أسباب الإدراك وتكون قلوبهم غلفا، ويتوالى منهم الفساد، فيكون ذلك سببًا فى أن ينزل بهم عذاب الله، ويكونون ظالمين لأنفسهم.

وقوله تعالى: ﴿ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا ﴾ فيه إشارة إلى أن الله لا يأخذهم إلا بالسيئات، وهى ما يسوء فى ذات من الأفعال، وما يسوء الناس، وما يصدهم عن الحق المبين.

﴿ وَحَاقَ بِهِم ﴾، أى أحاط بقلوبهم عملهم السيىء، حتى أصبحوا لا يدورون إلا فى فلكه، واستعمال (حاق) بمعنى أحاط لا يكون إلا فى السوء، فالحيق لا يكون إلا فى إحاطة الشر.

وقوله تعالى: ﴿ مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾، أى أحاط بهم القول الذى كانوا به يستهزئون، أى جزاؤه وحذف المضاف للإشارة إلى المساواة بين الجزاء والفعل كأنه هو.

ويصح أن نقول إن المراد، أن يحيط بهم الاستهزاء نفسه تقريعا ولوما، وإشعارا لهم بأنهم المستهزئون المحقرون، ومن كانوا موضع استهزائهم السخيف هم الأكرمون عند الله.

وإن تفكير السيئين دائما أن يحملوا أوزارهم وأوزار غيرهم، كما جاء سارق فقيل له لِمَ سرقت؟ فقال: ذلك قضاء الله فكأنه يحمل الله تعالى ما ارتكب، كذلك تفكير المشركين.

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (٣٥) ﴾.

إن الذين أشركوا وكانوا يخاصمون النبى ﷺ قوم خصمون يحتجون على النبى ﷺ لكل ما يتوهمون أن فيه حجة لهم، غير مدخرين قولا ولو كان باطلا فى ذاته، ولا يؤمنون به.

قالوا متحدين النبى ﷺ بقولهم أن ينزل بهم عقاب ماحق، ﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ ﴾، أى لو شاء ألا نشرك، وألا نحرم شيئا حلالا مما حرمنا، كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحام، لأنزل بنا عقوبة رادعة مانعة قاطعة، ولكنه لا ينزل، وينذر ولا ينفذ، فهو تحد للنبى ﷺ أن ينزل بهم ما أنزل الله على الأقوام قبلهم؛ ولذا قال تعالى من بعد ذلك: ﴿ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ ﴾، أى لا يملك إنزال العذاب، وإنما الذى يملكه الله تعالى، وهو ليس عليه إلا البلاغ، وقد بلغ وأنذر.

هذا تخريج الحافظ ابن كثير، وهو تخريج مستقيم تتناسق فيه العبارات، وتتلاقى المعانى.

وهناك تخريج آخر يقاربه ولا يباعده، وهو أنهم يقولون ذلك استهزاء بالنبى ﷺ وتهكما، بأنه لو كان يستطيع التغيير لغير، ولكن الله رضى لنا ذلك، فيقول الله ﴿ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ ﴾ وهو قريب من الأول فى معناه، وإن خالفه بعض المخالفة فى مبناه.

وهناك تخريج ثالث، وهو الذى ضرب على نغمته الزمخشرى، وسار فى مساره غيره، وإن خالفوه فى النتيجة، وذلك التخريج أنهم يسندون إلى الله وزرهم فى الشرك فيقولون: إن شركهم بمشيئة الله وما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن فلو شاء ألا نعبدهم من دونه ما حرمنا، فكيف نحاسب على أمر شاءه الله تعالى، وبذلك يربطون الأمر بالإرادة، فيقولون: إن أمرا يجب أن يكون ملازما لإرادته، ولا يأمر الله بشىء لم يرده، فيقول لهم: ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾، أى ليس على الرسل إلا البلاغ، وهو تبيين أمر الله تعالى فلا تجادلوا، وأنهم قد بينوا الحق فلا سبيل للتخلص من أمر الله، وأنكم تحسون فى ذات أنفسكم بالاختيار وعلى ذلك يكون.

ونقول إن التخريج الأول تكون الآية متناسقة فى ألفاظها وعباراتها ومعانيها، والتخريج الأخير يجعل قوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ وفى ربطه ببقية الآيات تكلف، ولو كان المخرِّج له إمام البلاغة الزمخشرى.

وهنا إشارات بيانية ترجح التخريج الأول ونشير إليها:

الأولى ـ فى قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، أى فعل ذلك الفعل الذى تفعلون فعل الذين من قبلكم، وهؤلاء لم يفعلوا بل قالوا ولم يقل: وكذلك قال الذين من قبلكم، فدل ذلك على أن ما كان منهم ليس مجرد قول بل هو فعل وهو التحدى أو الاستهزاء، وبذلك يترجح التخريج الأول أو الثانى ولا يترجح الأخير.

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿وَلا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ﴾، أى ما حرمنا من غير الله من شىء، بل من ذات أنفسنا.

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ الفاء للإفصاح؛ لأنها تفصح عن شرط مقدر إذ تقديره إذا كنتم تتحدون وتطلبون إنزال العقاب فليس هذا لنا، إنما علينا البلاغ الواضح المبين الذى لا يترك ريبة لمرتاب،

والاستفهام هنا إنكارى لإنكار الوقوع، أى ليس على الرسل إلا البلاغ المبين، أى التبليغ الواضح وهذه الجملة السامية لا تخلو من إنذار، ووصف البلاغ بأنه مبين يفيد أنه معلوم بإنذاره فمن اهتدى فلنفسه ومن عاند وخالف فعليه إثم عناده.

والآية هنا رجحنا أنها للتحدى أو الاستهزاء، وفى سورة الأنعام يرجح أنها لتعلاتهم فى إثمهم وشركهم، ولذا كان الرد عليهم: ﴿ ... **قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ** (١٤٨) ﴾ [الأنعام].

بعث الرسل بالتوحيد والبعث

قال الله تعالى:

وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٣٦) إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (٣٧) وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٨) لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ (٣٩) إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٤٠)

بعد أن أشار سبحانه إلى أن على الرسل البلاغ المبين الواضح بأدلته، وآيات الله المقترنة به، بين سبحانه أنه ما ترك أمة من غير نذير، بل بعث فى كل أمة رسولها بالحق، فقال عز من قائل:

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً ﴾.

أكد سبحانه وتعالى بعثه للرسل بأن بعث لكل أمة رسولا، وأن محمدا ﷺ لم يكن بدعا من الرسل، أكد ذلك باللام وقد، ولقد عين سبحانه رسالة كل رسول من هؤلاء الرسل فقال: ﴿ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾.

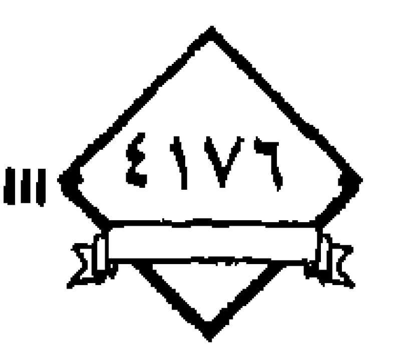
﴿ أَنِ ﴾ تفسيرية فهى مفسرة بمعنى الرسالة، وهى الأمر بعبادة الله وحده واجتناب الطاغوت.

وقوله تعالى: ﴿ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ فيه أمر بالوحدانية ودعوة إليها وتحريض عليها؛ لأن عبادة الله تعالى لا تكون إلا إذا كان يعبد وحده لا شريك له.

وقوله تعالى: ﴿ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾، أى ابعدوا عن أنفسكم الطاغوت، أى جانبوه، والطاغوت فعلوت من الطغيان، وهو مجاوزة الحد، ويشمل مجاوزة الحد فى العقول فيعبد ما لا ينفع ولا يضر، ويشرك مع الله غيره وتتحكم فيه الأوهام، فيرى الباطل حقا والحق باطلا، ويشمل ظلم العباد، والطغيان عليهم، ويشمل الطغيان فى المعاملات والظلم، وغير ذلك.

فالدعوة أى الوحدانية واجتناب الطاغوت جامعة لكل معانى الرسالة من عقيدة، وتعامل الناس بعضها مع بعض، هذه رسالة رسل الله فى الأرض، اعتقاد سليم، وتعاون وعمل عادل مستقيم.

وقد تلقى الناس رسالة الرسل الهادية المرشدة ما بين مهتد مقتنع مؤمن، وما بين ضالٍّ قد حقت عليه الضلالة، ولذلك قال سبحانه: ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ ﴾ ومن هدى الله هو الذى سلك طريق الهداية، وأعد قلبه لقبول الحق والاقتناع به، ولم تكن ثمة غواش من حب المادة أو السلطان أو الجاه أو التأثر بما كان عليه الآباء، فيتبع من غير تفكير ولا تدبر بل نقول:



﴿ ...بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا... (١٧٠) ﴾ [البقرة]، فمن كانت حاله كذلك، وهو فى هذا متساوق مع الفطرة فإن الله يهديه، ويجعله يتم الصراط التى ابتدأ السير فيها.

وأما من حقت عليه الضلالة، أى ثبتت وتأكدت، فهو الذى لا يتفكر ولا يتدبر لغواش غشيت قلبه من حب الدنيا وجاهها، وسلطانها، وسيطر على عقله التقليد، والعناد والاستكبار، وبذلك تفسد فطرته التى فطر الناس عليها، ولذا حقت عليهم الضلالة.

وإن أولئك أنزل الله تعالى بهم الدمار فى الدنيا، وصاروا عبرة للمعتبرين؛ ولذا قال تعالى: ﴿فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾.

(الفاء) الأولى دالة على الإفصاح عن شرط مقدر، أو كلام مقدر تقديره فنزل بهم الدمار والهلاك ﴿فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ﴾، فستجدون الآثار لمن أهلكهم الله، ﴿فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾، أى انظر الحال التى آل إليها أمرهم بسبب تكذيبهم؛ ولذلك أظهر فى موضع الإضمار للدلالة على أن ما أصابهم سببه التكذيب، والله سبحانه وتعالى أعلم.

كان النبى ﷺ حريصا على أن يهتدى قومه، لرأفته بهم ولرغبته فى مصلحتهم، ولأنه يرى إيمانهم من كمال تبليغ رسالته، ويخشى أن يكون قد قصر فى التبليغ إن لم يؤمنوا، ولأنه ـ كصاحب كل دعوة ـ يريد للناس أن يتبعوها فى غير عوجاء ولا اعوجاج، ولكن الهداية ليست بيده، إنما هى بيد الله؛ ولذا قال تعالى:

﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (٣٧)﴾.

الخطاب للنبى ﷺ الذى كان حريصا على هداية قومه، والحرص هو الرغبة الشديدة فى أمر من الأمور، وقد كان النبى ﷺ راغبا فى هداية قومه، والضمير فى ﴿هُدَاهُمْ﴾ يعود على الذين قالوا: ما أشركنا نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شىء.

وجواب الشرط فى ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ﴾ هو قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَن يُضِلُّ﴾ ويضل هنا معناها من كتب عليه الضلالة، وقدرها له فى قدره المحتوم، ولوحه المحفوظ، وذلك لأنه سلك سبيل الغواية ولم يتفكر ويتدبر، وسيطرت عليهم أوهام المادة، والجاه والسلطان وحب السيطرة فإنه تكتب عليه الضلالة، ولترك الله تعالى له سادرا فى غلوائه يكون كمن يضله.

﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾، أى لا أحد ينصرهم، وهذا يومىء إلى أنهم يعتريهم عذاب أليم، لا ينقذهم منه ولى ولا ناصر لهم، وفيه دلالة على أنهم ما داموا قد رتعوا فى الغى، فلا يمكن أن يكون لهم هاد مرشد، وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ... (٥٦)﴾ [القصص].

وإن هذا الجحود سببه أمران:

الأمر الأول ـ الاستكبار، وقد تكلمت الآيات القرآنية فى آثاره.

والأمر الثانى ـ جحود اليوم الآخر، وقولهم: إن هى إلا حياتنا الدنيا نلهو ونلعب، وقد بين الله تعالى حالهم فى جحودهم اليوم الآخر فقال تعالى:

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٣٨)﴾، ﴿جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾، الجهد مصدر بمعنى الطاعة والقوة، ومعنى أقسموا بالله جهد أيمانهم أى جاهدين بأقصى قوتهم فى تأكيد يمينهم، والمقسم عليه ﴿لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ مأسورين فى ذلك بالحال التى وقعت، وهى الوقت ويحسبونه فناء لا حياة بعده، ويحسبون أنه لا شىء غير المادة، ولا يؤمنون بالمنشئ الموجد، وإن كانوا يقولون: الله خالق كل شئ، ولكنه قول لا يتغلغل فى قلوبهم، ويستمكن فى نفوسهم، روى البخارى أن رسول الله ﷺ قال فى حديث قدسى: «**كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمنى ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياى فقوله: لن يعيدنى كما بدأنى، وأما شتمه إياى فقوله اتخذ الله ولدا، وأنا الأحد الصمد لم ألد ولم أولد ولم يكن لى كفوا أحد**»[1].

(١) رواه البخارى: تفسير القرآن (٤٥٩٢). كما أخرجه النسائى: الجنائز (٢٠٥١)، وأحمد: باقى مسند المكثرين (٧٨٧٣).

رد الله تعالى قسمهم الباطل بقوله تعالى - بلى - وهى تدل على الإجابة بالنفى وهو ما أكدوه، ثم أكد سبحانه وتعالى الجواب بالنفى بقوله تعالى: ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ ووعدا مصدر، ووصفه بأنه حق ثابت مستقر لا مجال لإخلافه، وقال تعالى: ﴿عَلَيْهِ﴾، أى أنه سبحانه التزمه، وكيف يترك ما التزمه ولا ملزم له، إنما هو الملتزم.

وبين سبحانه أن أكثر الناس غلبتهم المادة، وسيطرت عليهم الأحوال التى يرونها، وتركوا المغيب عنهم فلم يدركوه، ولم يؤمنوا بالغيب؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ الاستدراك هنا من الوعد المؤكد الثابت الذى ألزم الله تعالى به نفسه، إذ كان الواجب عليهم أن يعلموا من قياس القابل على الحاضر ولكن أكثرهم لا يعلمون، أى ليس من شأنهم أن يدركوا، وأن يعلموا لأنهم لم يؤمنوا بالغيب، ولم يعرفوا قدرة ربهم، وما المراد (بالناس)؟ إن أريد المشركون فكلهم لا يعلمون ذلك، وقيل المؤمنون، وإن أريد الناس جميعا، فإن أكثرهم لا يؤمنون بالعودة، ومن اعتقد منهم لا يذعن، وإلا ما كانت المعاصى التى ترتكب جهارًا، فهى لا ترتكب إلا من غفلة فى الإيمان باليوم الآخر، وقد بين الله تعالى الغاية من البعث، فقال تعالى:

﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ (٣٩)﴾.

(اللام) متعلقة بما قبلها، أى أنها فى مقام التعليل لوعد الله الحق الثابت المؤكد الذى ألزم الله تعالى به ذاته العلية، والمعنى أن الله تعالى ما خلق الناس عبثا كما فى قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ (١١٥)﴾ [المؤمنون]، فالله تعالى لم يخلق الإنسان، ولم يجعله كالبهائم، بل خلقه ومعه عقل يتفكر ويتدبر، وحيث كان التفكير، كان الحساب على الأفعال، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، والدنيا لا تتسع لكل حساب الأعمال، فلابد من أخرى يحاسب فيها على جميع الأفعال، والأناسى منهم المظلوم المحروم، ومنهم الظالم

المجدود[١]، فلابد من يوم يستوفى فيه كل ذى حق حقه، ينال كل ثمرة ما كسب، ومن نوع ما كسب.

وذلك هو ما يكون بعد البعث، وهذا معنى ليبين لهم الذى يختلفون فيه من حق وباطل وعدل وظلم، ويكون كل ذلك أمام الحكم الذى يفتح بين الناس، ويفصل بينهم بالحق وهو خير الفاصلين، ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾.

(اللام) هنا للعاقبة، بينما اللام الأولى للتعليل؛ ولذا كررت اللام لتغاير معناها، ومعنى العاقبة أنهم كانوا يكفرون بالبعث، ويكذبون الرسل فى الدعوة إلى الإيمان، ويشركون ويكذبون الرسل فى الدعوة إلى التوحيد، فإذا كان البعث والحساب والعقاب لمن أنكر وكابر وأشرك، والثواب لمن آمن وأطاع وصبر وجاهد فإن عاقبة ذلك الذى يرونه حسيا أن يعلموا أنهم كانوا كاذبين فى كل ما ادعوا وأنكروا، وباهتوا الرسل والمؤمنين، وعبر بالموصول ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لبيان أن كفرهم هو السبب فى تكذيبهم، وأكد سبحانه وتعالى علمهم بكذبهم، أولا: بـ«أنَّ» المؤكدة، وثانيا: بـ «كان» الدالة على دوامهم على الكذب بدوام كفرهم، وثالثا: بالجملة الاسمية، والله سبحانه يعلم الغيب فى السموات والأرض وإليه ترجعون.

وإن السبب فى إنكارهم البعث هو أنهم مأسورون بالمادة والحاضر الذى بين أيديهم وأنهم لا يقدرون قدرة الله تعالى حق قدرها؛ ولذا أشار سبحانه وتعالى إلى كمال قدرته على الخلق والتكوين، وأنه ليس إلا أن يريد الشىء فيكون، فقال الله تعالى:

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٤٠)﴾.

﴿إِنَّمَا﴾ «أداة قصر» أى أن خلق الله للأشياء محصور فى هذه الطريق السهلة التى لا تمتنع عليه بشىء، ولسنا نبحث فى سر الخلق والتكوين، فنسأل

(١) المجدود: اسم مفعول بمعنى المحظوظ. الصحاح/ جدد.

كيف خلق الله الناس، إنما نتعرف ذلك من قوله سبحانه، وهو يدل على أن الله تعالى يخلق الأشياء بإرادته المختارة، فلم تنشأ عنه الأشياء نشوء المعلول عن علته، فذلك وهم تعالى الله عنه سبحانه؛ ولذا قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ﴾، أي حاله وشأنه في قدرته وتكوينه للأشياء ﴿إِذَا أَرَدْنَاهُ﴾، أي أراده بإرادة حرة مختارة، وأنه فعال لما يريد ﴿أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾، أي احدث وكن شيئا مذكورا، فيكون، ومعنى هذا أنه سبحانه وتعالى لا يصعب عليه شيء في الوجود، فلا يتكلف كائن في الوجود أكثر من قوله كن فيكون، وهذا تصوير لسهولة الخلق عليه تعالت قدرته، وذلك كقوله تعالى: ﴿... وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ... (٧٧)﴾.

وهذا كله للعاقل المستبصر المدرك، ولقد كانوا يعجبون كيف يعودون. ولقد فنيت أجسام الأموات فقال تعالى مبينا أن شيئا لا يصعب على إرادته، فقال: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا (٥١) يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً (٥٢)﴾ [الإسراء].

المؤمنون

قال الله تعالى:

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٤٢) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٤٣) بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤)

﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) ﴾.

الهجرة ترك الدار لغاية سامية أو لطلب الرزق، وقد حبب الله تعالى فى هاتين الحالتين، فقال تعالى: ﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً... (١٠٠) ﴾ [النساء].

وقد كانت هجرتان: هجرة إلى الحبشة فرارًا بالدين من الذين ظلموا، ومن هؤلاء عثمان بن عفان وجعفر بن أبى طالب وعدد من الصديقين والصديقات بلغت عدتهم ثمانين أو يزيد، والهجرة الكبرى إلى المدينة وفيها هجرة النبى ﷺ، وإن هذه السورة مكية، أى أنها كانت قبل الهجرة الكبرى فالذين هاجروا فى الآية هم المهاجرون إلى الحبشة.

وقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ ﴾ الفاء هنا للسببية، أى لأجل الله تعالى، وذكر الفاء يومىء إلى أنهم فنوا فى الله فصاروا لا يفكرون فى غيره، وصار هو ملء قلوبهم ونفوسهم وعقولهم، وأحاسيسهم فكلهم له سبحانه وتعالى لا يفكرون إلا فيه، ويهون كل عذاب فى سبيله.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ﴾ و﴿ مَا ﴾ هنا مصدرية، أى من بعد ظلمهم، وقد كتب الله تعالى لهم الجزاء الحسن لصبرهم على الأذى، ونزول الظلم بهم، وهجرتهم ببعدهم عن الخلان والأحباب، والديار والأموال، وبيع أنفسهم لله تعالى حتى لا يطلبوا إلا مرضاته.

وقد قال تعالى فى جزائهم: ﴿ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾، (اللام) لام القسم وهى مؤكِّدة، والقسم مؤكد، ونون التوكيد مؤكدة، والحسنة الأمر الذى يكون حسنا لا إساءة فيه فى ذاته ولا فى مغبته، و(نبوئنهم) نمكنهم فى الحسنة كأنهم يفتقدونها ويستمكنون منها، والحسنة فى الدنيا التى نالت المؤمنين والمهاجرين من بعد هى العيش الحسن، وقد نزلوا من بعد الحبشة المدينة هم ومن كانوا فى مكة يلاقون الظلم والإيذاء بكل أنواعه والاستهزاء والسخرية، فالتقوا فى دار الهجرة.

ومن حسنة الدنيا النصر على الشرك وأهله، وغنائم النصر، والتعاون والإخاء، وإقامة حياة فاضلة فى المدينة.

هذه حسنة الدنيا ﴿وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾، (اللام) لام الابتداء للتوكيد، وأجر الآخرة أكبر لأنه نعيم مقيم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها، فأكل الجنة دائم لا ينتهى، وقال: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾، والضمير فى يعلمون يعود إلى المؤمنين، و﴿لَوْ﴾ تكون للتمنى، أى ليتهم يعلمون ذلك علم العيان والرؤية، لا علم الخبر والذكر، وفى ذلك بيان لفضله، وعظم شأنه، كأنه فوق الخيال والتصور، واختار الزمخشرى أن يكون للكفار ولكنه بعيد، وقد قال تعالى فى سبب استحقاقهم ذلك الجزاء العظيم.

﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿الَّذِينَ﴾ عطف بيان للمهاجرين، لقد صبر المهاجرون أبلغ الصبر، صبروا على الذى نزل بهم، والظلم الذى وقع عليهم والاستهزاء والسخرية بهم، وتصغير شأنهم، وتحقير أمرهم، وكأنهم الأرذلون، وهم الأكرمون، وصبروا على ترك الأحباب، وترك الأموال وترك الديار.

صبروا على كل ذلك، وعلى أن المشركين حاولوا أن يسدوا باب الأمل فى نفوسهم لولا فضل من الله ورحمة، ولكنهم مع ذلك كان أمامهم ربهم فتح لهم السدود، بالتوكل عليه؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾، أى على ربهم وحده، لا على أحد سواه يتوكلون، وعبر بالمضارع لدوام توكلهم، وقدم الجار والمجرور على الفعل للتخصيص، أى على الله وحده يتوكلون فهو الذى يفتح لهم الأبواب التى يسدها الشرك، ويكون من ورائها الانتصار.

ولقد كان المشركون يعترضون على الرسالة المحمدية بأنها لرجل، ويريدون ملائكة، فبين الله تعالى أن الرسل جميعا من الرجال، فقال عز من قائل:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٤٣) ﴾ .

ليس عجبا أن يوحى الله تعالى إلى رجل منكم، وما كان محمد ﷺ بدعا فى الرسل، بل كان الرسل من أقوامهم يحسون بإحساسهم، ويتألفونهم ويعرفونهم فى ماضيهم الطاهر المنزه، ولم يرسل رسولا إلا إذا كان من قومه وكان رجلا منهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً ﴾، فما أرسلنا ملكا؛ لأن طبيعته ليست من طبيعة الإنسان، وهو روح غير جسد، ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ (٩) ﴾ [الأنعام]، الأمر أهو ملك، أما إنسان، وإن امتياز هذا الرجل الرسول من بينهم أنه يوحى إليه، وينزل عليه جبريل الأمين برسالته؛ ولذا قال: ﴿ نُّوحِي إِلَيْهِمْ ﴾، هذه قراءة بالنون المعظم للمتكلم، وهو الله تعالى، وأى متكلم أكبر وأعظم من رب البرية، وهذا كقوله تعالى فى آية أخرى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ... (١٠٩) ﴾ [يوسف]، ولقد قال سبحانه وتعالى على لسان رسوله: ﴿ ... قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً (٩٣) ﴾ [الإسراء].

ولقد نبههم سبحانه إلى أن عليهم أن يتعرفوا الأمر من أهل المعرفة، فقد كانوا أميين منقطعين عن الرسالة فأراد سبحانه أن يوجههم إلى سؤال أهل المعرفة: ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾، (الفاء) تفصح عن شرط مقدر، أو واقعة فى جواب الشرط ﴿ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ وأهل الذكر هم أهل التفكر والتدبر والعلم بالأشياء على وجهها، ويدخل فى هؤلاء أهل الكتاب، أى إن كنتم لا تعلمون هذه الحقائق، فلا تعجبوا فى الأمر لمجرد أنه يثير عجبكم واستغرابكم، بل تعرفوا الأمر من أهل الذكر والحكمة والمعرفة وأهل الكتاب ليزول عجبكم واستغرابكم، وذلك مع المعجزة الكبرى التى قدمها لكم، وتحداكم أن تأتوا بسورة من مثله، وما زال يتحداكم وهكذا نرى القرآن الكريم يصرف الآيات ليدركوا وليستبينوا الحق.

ولقد أشار سبحانه بعد ذلك إلى ما جاء به الرسل والأنبياء، ﴿ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤) ﴾.

بين هذه الجملة وما قبلها تمام الاتصال، لأنها فى معنى البيان لها، ﴿ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾، متعلق بمحذوف دل عليه الكلام السابق، أى أرسلناهم بالبينات، وهى الآيات الدالة على رسالتهم، ﴿ وَالزُّبُرِ ﴾ الزبر جمع زبور، وهو الكتاب، يقولون زبرت الكتاب إذا كتبته، وقد قال تعالى: ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (٥٢) ﴾ [القمر] وكما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (١٠٥) ﴾ [الأنبياء].

والمعنى أن هؤلاء أرسلوا رجالا ولا يكونون إلا رجالا مصحوبين بالبينات أى المعجزات الدالة على أنهم مبعوثون من عند الله، وجاءتهم منهم الكتب التى تبين فيها الشرائع التى أراد الله تعالى أن يعلموها للناس، وقد جئتهم بذلك وبالحق فما لهم يستنكفون عن قبول ما تدعوهم إليه، ويعجبون من أن يجيئهم الحق من الله على لسان رجل منهم.

ثم قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ ﴾، الذكر هو القرآن الكريم، وسمى القرآن هنا ذكرا، لأنه مذكر الأنبياء السابقين ورسائلهم، ما نسخ منها وما بقى، ولأنه الذكر الدائم إلى يوم القيامة، ولأن الذين نزل فيهم القرآن شهدوا على الناس بأن ما نزل إليهم من شرائع حق، والله شهيد عليهم، ألم تر إلى الذين ادعوا أنهم أتباع عيسى وحرفوا العقيدة، وجعلوها وثنية مثلّثة صحح القرآن عقيدتهم وردها إلى أصلها، وشهد القرآن والمؤمنون بالصادق، وبطل ما صنعوا وحرفوا وثلثوا.

وقوله تعالى: ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾، (اللام) هنا لام العاقبة، لتكون الثمرة والنتيجة والعاقبة أن تبين بالقرآن الذى نزل على قلبك للناس ما نزل إليهم من ربهم فى الماضى والحاضر، وما هو شريعة ربهم الأزلية الخالدة الباقية، كما قال تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ

إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ ولا تَتَفرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ... (١٣) ﴾ [الشورى].

وقوله تعالى: ﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾، أى رجاء منهم أن يتفكروا ويتدبروا ويبتعدوا عن الجحود والكفر، وكان العطف بالواو للدلالة على أن هذه غاية وثمرة للنزول كتبيين النبى ﷺ.

تنبيه وإنذار

قال تعالى:

أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٤٥) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ (٤٦) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٤٧) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ (٤٨) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٤٩) يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ (٥٠)

كان المشركون من وقت أن بعث النبى ﷺ يدعوهم بأمر ربه لا يفكرون فيما اشتملت عليه من حق، ولا فى ماضيه الذى يدل على الصدق والأمانة، وأنه كان الأمين فيهم حتى سمى بذلك، ولا فى حقيقة ما يدعو إليه، ولا فى حقيقة ما هم عليه من عبادة الأحجار التى لا تضر ولا تنفع لا يفكرون فى شىء من ذلك، إنما يفكرون فى مقاومة الدعوة وصدوا عن غير المقاومة صدودا، وذبروا لإيذاء

المستضعفين، والسخرية بالمؤمنين، والاستهزاء بأهل الحق ويقتلون الذروة والغارب ليقضوا على الدعوة، حتى إنهم ليقتسمون مداخل مكة، ليشوهوا دعوة النبى ﷺ إذا دعا الحجيج، يفعلون كل ذلك ونسوا أن الله تعالى قد ينزل بهم العذاب؛ ولذا قال تعالى منبها لهم منذرا:

﴿ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ (٤٥) ﴾.

(الفاء) لترتيب ما بعدها على ما قبلها وهو حالهم التى هم عليها، ولكن تأخرت الفاء؛ لأن الصدارة تكون للاستفهام والمعنى أفعلوا ما فعلوا ودبروا السوء، وآذوا ودبروا الأمور المسيئة فى نفسها أفأمنوا أن يخسف الله تعالى بهم الأرض، بأن تنحط الأرض حتى تبتلع ديارهم وأموالهم، أغفلوا وأمنوا مكر الله وقد دبروا السيئات وفعلوا وأرادوا، ويميل بعض المفسرين إلى أن السيئات وصف لموصوف محذوف تقديره «أفأمن الذين مكروا المكرات السيئات»، ونحن نرى أنه لا حاجة إلى تقدير موصوف محذوف؛ لأن المكر وهو التدبير متجه إلى إنشاء السيئات فهم دبروا السيئات فى إيذاء المستضعفين، ودبروا السيئات فى الأقوال والأفعال طوال إقامة النبى ﷺ بينهم فى مكة، لم يتركوا نوعا من السيئات إلا دبروها.

وهم يعلمون قوة الله القاهرة، وأنه الذى يلجأ إليه فى الملمات، فلم يكونوا جاهلين لها، وإن عبدوا مع الله الأحجار والأوهام، فإذا نبههم الله تعالى بأنه قادر على خسف الأرض من تحتهم فهم لا يجهلون ذلك.

وقد قال تعالى منبها لهم، ومثيرا لعلمهم بقدرة الله تعالى: **﴿ أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ (١٦) أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ (١٧) ﴾** [الملك].

ثم قال تعالى: **﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ ﴾**، (أو) عاطفة **﴿ الْعَذَابُ ﴾**، هو العذاب الدنيوى المدمر كالذى نزل بقوم لوط، فجعل الله عالى الأرض سافلها، أو تأتيهم ريح صرصر عاتية، أو ريح فيها عذاب شديد، يكون

مفاجئا لهم لا يعلمون بوقوعه، ولا يتوقعونه وهذا معنى لا يشعرون، أى لا يعلمون ولا يتوقعون بل ربما كانوا يرجون الخير، كقوله تعالى فى عاد: ﴿ **فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ** (٢٤) ﴾ [الأحقاف].

ثم يقول تعالى منذرًا بالعذاب الشديد:

﴿ **أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ** (٤٦) ﴾.

إن أخذهم وهم لا يشعرون يكونون وهم فى مساكنهم مطمئنون أو قابعون فى ديارهم وهم لا يعرفون آثار مكرهم السيئات وتدبيرهم الفاسد لأهل الإيمان والكرامات، ولذا لا يشعرون، وقد يأخذهم وهم متنقلون فى الأسفار يسيرون فى مسارها، ويتنقلون لمتاجرهم، وقد يأخذهم الله وهم كذلك لا يفكرون إلا فى الكسب والخسارة والربح وسائر أبواب التجارة؛ ولذا قال تعالى: ﴿ **أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ** ﴾، أى فى انتقالاهم من بلد لبلد، يتقلبون فى البلاد، والتقلب تعبير عربى قرآنى يؤكد به الانتقال من بلد إلى بلد تاجرا، أو سائحا، وكأن فى ذلك مجازا إذ شبه التنقل من بلد إلى بلد بالكرة المتقلبة من وضع إلى وضع، وهى تنقله من مكان إلى مكان.

وإذا كانوا قد أحيط بهم، فهم فى مأمنهم غير آمنين، وفى أسفارهم غير مطمئنين فهم فى قبضة الله تعالى؛ ولذا فما هم بمعجزين الله تعالى أن ينزل بهم ما يريد، فاستقيموا على الطريقة، وإلا أخذكم أخذ عزيز مقتدر، كانت الصور السابقة فى أخذ بالخسف أو العذاب من حيث لا يشعرون، أو وهم فى حال تقلبهم فى البلاد بالمتاجر لا يخافون، فقد ينزل العذاب وهم يتخوفون من العذاب، ولكنهم مصرون على سببه من مكر السيئات، وتدبير الموبقات للمؤمنين ضعفائهم وكبرائهم بالاستهزاء والسخرية.

ولذا قال تعالى: ﴿ **أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ** ﴾، أى تخوف من العذاب أن ينزل بهم كما نزل بالأقوام قبلهم فهم يعروهم الخوف، ولكن لا يصل إلى حملهم على الإيمان، ولكن يتخوفون أن ينزل بهم، وقد يفسر التخوف بمعنى النقص، أى

ينقص الله من أموالهم شيئا فشيئا. كما فعل سبحانه وتعالى بقوم فرعون إذ قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٣٠)﴾ [الأعراف]، فالتخوف هو النقص حتى يكون الهلاك من بعد ذلك.

ولقد ذكر الزمخشري في ذلك ما نصه: «وقيل هو من قولك: تخوفته إذا تنقصته، قال زهير:

تخوَّف الرحل منها تَامِكا قَرِدا كما تخوف عود النبعة السَّفِن

أي يأخذهم على أن يتنقصهم شيئا بعد شيء في أنفسهم وأموالهم حتى يهلكوا، وعن عمر رضي الله عنه أنه قال على المنبر: ما تقولون فيها، فسكتوا فقام شيخ من هذيل فقال: هذه لغتنا، التخوف التنقص قال: فهل تعرف العرب ذلك في أشعارها؟ قال: نعم قال: شاعرنا وأنشد البيت، فقال عمر: أيها الناس عليكم بديوانكم، قالوا: وما ديواننا، قال: شعر الجاهلية».

ومعنى النص السامي أن العذاب يأتيهم وهم لا يشعرون وهم في مأمنهم قابعون، أو يأتيهم في متاجرهم ومتقلبهم مقبلين، أو يأتيهم بنقص وهلاك بطيء فينتهون وهم قد عرفوا الابتداء ولم يعرفوا الانتهاء.

وقد ختم الله سبحانه آيات الإنذار بقوله: ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

ووصف الله سبحانه وتعالى ذاته بالرأفة والرحمة مع هذا التهديد الشديد، لأن رأفته بهم، ورحمته العامة، اقتضت ألا يعاجلهم بالعقاب، فهو سبحانه يبين لهم أنه قادر على العقاب ينزله بهم في أي باب من هذه الأبواب، ولكنه لم يعجل رأفة بهم وهو رحيم رحمة عامة للناس.

وفوق ذلك فإن الإنذار بالعقوبة، بل العقوبة نفسها رحمة بالكافة، فليس من الرحمة بالكافة أن يترك الظالم في غيه يرتع ويلعب ويعبث بالكرامة الإنسانية، فقد روى عن النبي ﷺ أنه قال: «من لا يَرْحَمْ لا يُرْحم»[1]، وقد ثبت في

(١) سبق تخريجه.

الصحيحين أن النبى ﷺ قال: **«لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله أنهم يجعلون لله ولدا وهو يرزقهم ويعافيهم»**، ويقول ﷺ: **«إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته»**(١).

ويوجه سبحانه وتعالى الأنظار إلى الخلق والمخلوقات ففيها الدلالة على وحدانية الخالق، وفيها الدلالة على قدرته القاهرة وإرادته الظاهرة وفيها الدلالة على خضوع الوجود كله له سبحانه ساجدا داخرا صاغار، فقال عز من قائل:

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ (٤٨) ﴾.

الهمزة داخلة على فعل محذوف يقدره المقام والمعنى يفعلون ما يفعلون معاندين مجاهرين بالعصيان، ولم يروا ما خلق الله من شىء، و﴿ مِن ﴾ بيانية، أو لاستغراق النفى والاستفهام هنا إنكارى؛ لإنكار الوقوع وهو داخل على نفى، ونفى النفى إثبات، والمعنى انظروا (وفكروا) إلى ما خلق من أشياء تتفيأ ظلاله، أى لها فىء، ولهذا الفىء ظل، وتتداخل ظلاله، فالجبال لها فىء والأشجار لها فىء، وكل فىء له ظل، فتتفيؤ هذه الأفياء، ويكون ظلال كما ترى الشجر المتداخل تتفيأ الظلال ذات اليمين وذات الشمال، وعبر عن الجانبين المقابلين باليمين والشمال، فقوله عن اليمين والشمائل، عن الجانب اليمين من ناحية الشرق، وعن الشمائل من جهة الغرب، وذلك بالنسبة للكعبة فما يكون على شرقيها يكون يمينا، وما يكون عن غربيها يكون شمالا، وعبر عن اليمين بالمفرد ويراد به الجمع؛ لأنه أفياء مختلفة تطول ابتداء وتقصر عند الظهيرة، ثم تكون الأفياء ناحية الغرب تبتدئ قصيرة من فىء الزوال ثم تكبر شيئا فشيئا حتى تستطيل طولا كثيرا.

وفى التعبير عن اليمين بالمفرد إشارة إلى نهايته، وإلى أنه لا يرى إلا قصيرا

---

(١) رواه البخارى (٤٣١٨)، ومسلم: البر واصلة تحريم الظلم (٤٦٨٠).

بينما الشمال لا يرى إلا طويلا، ويزداد شيئا بعد شيء؛ ولذا عبر فيه بالجمع وهو شمائل، والاثنان جمع، فهو أفياء كما ذكرنا .

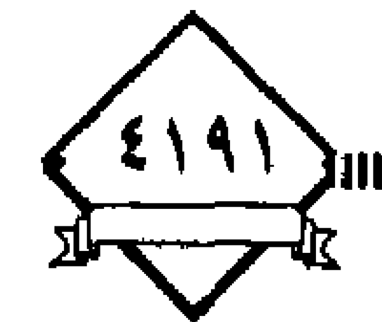
والتعبير بفيء ليضمنها معنى المجاوزة، أي إن تجاوز إلى اليمين أو تجاوز إلى الشمائل تكون أفياء، وقوله تعالى: ﴿ سُجَّدًا ﴾، أي أن هذه الأفياء ساجدة خاضعة لله تعالى، تسبح بحمده كما يسبح الرعد بحمده، وقوله تعالى: ﴿ دَاخِرُونَ ﴾، أي صاغرون خاضعون، وجمعت جمع عقلاء، تنزيلا لها هذه المنزلة لخضوعها وتسبيحها بحمده سبحانه وتعالى، وهو على كل شيء قدير.

﴿ **وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ** (٤٩) ﴾.

السجود هنا كالسجود فى الآية السابقة الخضوع الكونى لله تعالى والتسبيح بحمده، ولكن لا نفقه تسبيحهم، كما ذكر الله تعالى فى قوله تعالى: ﴿ **وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ** (١٥) ﴾ [الرعد].

وذكر سبحانه ما فى هذه الآية لعمومها ما فى السموات من كواكب ونجوم، وشمس وقمر وغير ذلك مما فى السموات ثم قال تعالى: ﴿ **وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَابَّةٍ** ﴾، (منْ) هنا دالة على البيان، أى أن كل دواب الأرض خاضعة تسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم.

وقد ذكر سبحانه وتعالى نوعين خاضعين ساجدين له، وهما الأجرام السماوية، وكل ما هو جسم يبدو لنا غير حى، ثم ذكر الأحياء وهى الدواب، ثم ذكر بعد ذلك قسما ثالثا، وهم الملائكة الأطهار والأرواح فقال: ﴿ **وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ** ﴾ فالملائكة خاضعون لله لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون، أو وصفهم الله تعالى بأنهم لا يستكبرون، أى أنهم ليسوا كإبليس الذى أبى واستكبر وكان من الكافرين، وكما قال تعالى: ﴿ **لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ** ... (١٧٢) ﴾ [النساء].



وقال تعالى فى أحوال الملائكة الأطهار: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿مِّن فَوْقِهِمْ﴾، قيل معناها يخافون ربهم أن يرسل عذابا من فوقهم، أو يخافونه، وهو فوقهم بالقهر، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ... (١٨)﴾ [الأنعام] ونحن نرى أن الفوقية هنا فوقيتهم هم، لا فوقية الله، والله تعالى فوق كل شىء، ومعنى فوقيتهم علوهم فى الخلق والتكوين، وكونهم أرواحا طاهرة، وإنهم مع هذه الفوقية يخافون الله تعالى، فكلما علوا فى الروحانية كان خوفهم بمقدار علوهم، وبذلك يستقيم الكلام من غير تقدير (يرسل) أو نحو ذلك، ويكون متفقا على ما ختمت به الآية السابقة فى قوله تعالى عنهم: ﴿وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

وقد أكد سبحانه وتعالى نفى استكبارهم، وخضوعهم، وخوفهم من ربهم الذى خلقهم بقوله تعالى: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ وفيه إشارة إلى إبليس الذى استكبر، ولم يفعل ما أمره به ربه.

الله يأمر بالوحدانية

قال الله تعالى:

وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ (٥١) وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ (٥٢) وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ (٥٣) ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٥٤) لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٥٥) وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ (٥٦)

بعد أن أشار الله تعالى إلى خلق السموات والأرض، وخضوع الجميع ساجدين، العقلاء وغير العقلاء، والأحياء والجماد على معنى جامع بينها، وهو الخضوع والتسبيح، وإن كنا لا نفقه تسبيحها فخالقها عالم بها.

بعد ذلك بين أنه سبحانه واحد أحد، وهو إله وحده فقال:

﴿ وَقَالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٥١) ﴾.

هذه الجملة السامية متصلة بما قبلها بالواو العاطفة، والواو العاطفة على ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ... ﴾، أي الله الذى يخضع الوجود كله له لا فرق بين حى وجماد، ولا عاقل ولا غير عاقل، يقول لكم: ﴿ لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ وذكر (اثنين) مؤكدا معنى العدد المفهوم من المثنى؛ لأن المثنى فى ذاته يدل على المثنوية، وكان التأكيد باثنين لأنه موضع النهى، إذ إن موضع النهى هو أن يكون إلهان اثنان، وذكر النهى عن اثنين، لأنه يتضمن النهى عن ثلاثة وأكثر؛ لأنه إذا كان الأقل منهيا عنه، فالأكثر أولى بالنهى؛ ولأن اتخاذ إلهين دلت الآية الأخرى على أنه يؤدى إلى الفساد فى السموات والأرض، إذ إن تعدد الآلهة يلغى معنى الألوهية ويفسد السموات والأرض التى دلت الآيات المتلوة والآيات الكونية على أنهما منظمان أبلغ ما يكون النظام، قال الله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢) ﴾ [الأنبياء]، وإن قياس البرهان على بطلان الشرك المبنى على التنازع يفرض إلهين، فيقول لو كان إلهان لتنازعا، ولرجح أحدهما على الآخر على فرض التساوى بينهما، وإذا تنازعا مع هذا التساوى فسد الكون، وإذا لم يفرض على التساوى، كان المتفاضل منهما هو الإله.

ونقول: إن ذكر الإلهين الاثنين فيه إيماء إلى هذا الدليل العقلى، والله أعلم.

﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾، (هو) دالة على معنى الإله المطلق وهو الله سبحانه، و(إنما) الدالة على القصر، أى قصر الألوهية على إله واحد سبحانه وتعالى.

بعد ذلك التفت عن الخطاب إلى ضمير المتكلم. فقال: ﴿فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ الفاء الأولى للإفصاح والمعنى: إذا كان الإله واحدا، ﴿فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ والفاء الثانية لربط الكلام، والمعنى إياى أنا وحدى فارهبون؛ لأنه لا إله إلا أنا، وقد انتقل سبحانه من مقام التنبيه والتعليل بذكر أدلة الوحدانية فى خلق السموات والأرض والتوجيه، والبرهان إلى التخويف ومن لم يقنعه الخوف والإرهاب.

وقد قال سبحانه وتعالى: إنه له الطاعة، والجزاء عليها والعبادة، والخضوع والعبودية وحده فقال تعالى:

﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ (٥٢)﴾.

سيق هذا الكلام الحكيم فى سياق بيانى، قد يؤخذ منه شكل منطقى، فقد قدم سبحانه وتعالى كلامه السامى، بقوله: ﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾، أى له السموات والأرض، وما فيها من أحياء وأجرام، وعقلاء وغير عقلاء، وإذا كان مالكا للوجود كله وهو وحده المتصرف بمقتضى الاختصاص الثابت بالملكية، فله العبادة وحده، وله الطاعة وحده، وهو الذى يملك الجزاء وحده؛ ولذلك قال بعد ذلك ما هو كالنتيجة لهاتين المقدمتين: ﴿وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا﴾ الدين يطلق ويراد منه العبادة وقد يراد منه الطاعة، وكلمة (واصب) قد يراد بها الدائم، وقد يراد المفروض، وقد يراد ما فيه مشقة محتملة، وهذه المعانى تراد جميعها من هذه الآية الكاملة، فله وحده العبادة، وله وحده الطاعة، وله وحده الجزاء، فهو الذى يجزى كلا بما يستحق، وهو الذى اختص بالله وحده دائم، ومفروض، ومنه تكليف للنفس بما يوجب الصبر، والمجاهدة.

وقد ختم الله تعالى الآية من الإخبار إلى الخطاب فقال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ﴾، الفاء للدلالة على ترتيب ما بعدها على ما قبلها، ذلك أنه يترتب على

الوحدانيـة، فيمـا ذكرنا الآيتين غـير الله تعـالى، وأخرت الفاء عن الهـمزة، لأن الاستفهام له الصدارة، والاستفهـام للتنبيه، وإنكار الوقوع، أى لا تتقون غير الله، وتقديم غير الله على الفعل للدلالة على أنه لا يتـقى سواه، والتقوى امتلاء القلب بخشية الله تعالى وجلاله وخوف عقابه فلا يتقى سواه، لأنه له الجزاء وحده.

بعد ذلك أخـذ سبحـانه وهو المنعم بالوجود يبين بعض نعـمه على الناس، فقال تعالت كلماته:

﴿ **وَمَا بِكُم مِّن نِّعْـمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ** (٥٣) ﴾.

الكلام مـوصول لبيـان نعم الله تعالى، وقـد ذكر أولا نعم الله تعـالى على الوجود الكونى كله بخلق السموات والأرض ومن فيهن من أجرام وأحياء، وعقلاء وغير عقلاء، ثم يذكر فى هذه نعمه على الإنسـان خاصة، فيقول مخاطبا الناس، ﴿ **وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ** ﴾ (ما) اسم موصول بمعنى الذى، وهو يكون أحيانا فى معنى الشـرط؛ ولذا تدخل الفاء فـيما بعـده على أنه جواب الشـرط الذى تضمنه الموصـول، والمعنى على ذلك: الذى بكم من نعمـة فى الصحـة والعقل والـغذاء والكساء والمأوى، والماء الذى تشربون، والدفء الذى به تستدفئون، كل هذا وغيره مما غمركم به من نعم سابغات فمن الله تعالى المنعم المتفضل على غيره، ﴿ ...**وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا**... (٣٤) ﴾ [إبراهيم].

وهو مع هذه النعم السابقـة كاشف الضر، ورافع الأذى؛ ولذا قـال تعالى: ﴿ **ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ** ﴾ أتى بـ(ثم)، هنا للتباعد بين حال النعمة وحال الضر، أى أنه منزل النعم، وكاشف النقم، والضر هو ما يصيب الإنسان من ضرر فى جسـمه بمرض، أو يصـيبـه من تعرض للغـرق أو الحرق، وهكذا من أسـباب الضرر، ومسكم: أصـابكم أو نزل بكم فإليه وحده تضـّرعون؛ ولذا قال: ﴿ **فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ** ﴾، يقال جأر يجأر جؤارا، أى تضرع ولجأ، وصاح لاجئًا إلى الله تعالى، ولفظ جأر تدل الالتـجاء إلى الله تعـالى لفزع وهلع، فإن كـان الذى مسه مـرضا جهش ودعا، وإذا كان الذى مسه ضرراً كان التجاؤه بصياح كخوار البقر.

ويقول تعالى: ﴿ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴾، بتقديم الجار والمجرور على الفعل أى إليه وحده تجأرون ضارعين.

وإذا كان يقتضى عبادة الله وحده فى السراء، ولكن إذا كشف الضر كان من الناس من يشرك بربه، ولذا قال تعالى:

﴿ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٥٤) ﴾.

﴿ ثُمَّ ﴾ هنا على موضعها اللغوى من التباعد بين ما قبلها وما بعدها؛ إذ إن ذلك كان يقتضى الإيمان، ولا يقتضى الكفر، لقد جأروا إلى الله وحده، ولم يلتجئوا إلى غيره، ولكنهم بعد أن زالت كربتهم، وكشفت غمتهم أشركوا بربهم؛ ولذا قال: ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾.

هذه (إذا) التى تسمى الفجائية، وهى التى يكون ما قبلها يدل على عدم توقع ما يجىء بعدها، إذ إن كشف الضر يوجب شكر المنعم والتضرع له وإفراده بالعبودية، فإذا كان الإشراك كان على مقتضى ما يتوقع، لقد ضرعوا إليه وحده فى شدتهم، وفى رخائهم كفروا به وأشركوا مع غيره من أحجار أو ما يشبه الأحجار.

وعدل الله فى حكمه أن جعل ذلك الكفر بالنعمة فى بعض منهم، وليس فى كلهم، وهم أولئك المشركون بمحمد، وقد أشار إلى أن هؤلاء ليسوا بكثرة الناس، ولكن دون الكثرة.

﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٥٥) ﴾.

اللام هنا لام الأمر، كاللام فى قوله تعالى: ﴿ ... لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ... (٧٧) ﴾ [الزخرف] والأمر هنا معناه التهديد، ووصف أفعالهم بأنها سيئة، ومن أشرك بربه بعد نعمته التى أنعمها عليه بأن يؤمر بالسير فى غيه، وهذا كقوله ﷺ، «إذا لم تستح فاصنع ما شئت»[1]، فالأمر ليس للطلب، ولكن لبيان أنهم

(١) سبق تخريجه.

قد فسدت فطرتهم وضلت عقولهم، حتى صاروا جديرين بألا يكون منهم إلا الشر.

أو نقول: اللام للعاقبة، ويكون المعنى لتكون العاقبة بأنهم كفروا بما آتيناهم من حق، وكتاب مبارك لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وإذا كانوا على ذلك النحو من الفساد والضلال النفسى فجدير أن يتمتعوا كما تتمتع البهائم من غير تفكر ولا تدبر؛ ولذا ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾ (الفاء) للإفصاح إذا كنتم على هذا الضلال وكفران النعمة، والإشراك بربكم ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾ والأمر للتهديد، وقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ (الفاء) لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أى فيها بيان لما يستقبلهم، وسوف لتأكيد الفعل فى المستقبل، أى إذا كنتم فى حاضركم متمتعين بما تملكون من متع، فمستقبلكم المغيب عنكم ستعلمونه علم معاينة وهو عذاب شديد، فقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ يتضمن تهديدا بعذاب مهين.

وقد بين سبحانه نوعا من الاسترسال فى عبادتهم الأوثان، وهو أن يجعلوا مما رزقهم الله تعالى من بهائم الأنعام نصيبا، فقال تعالى:

﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ (٥٦)﴾.

وذلك أن هؤلاء المشركين يسترسلون فى شركهم، فيحسبون أن من القربى للأوثان أن ينذروا لهم نذورا من الأنعام والحرث، فيجعلون هذا بزعمهم لله وللأوثان بزعمهم، ويخافون الأوثان أكثر من خوفهم من الله مع علمهم بأنه لا ينجيهم من كربهم إلا الله تعالى، على ما تبين من قول، وقد قال تعالى فى ذلك فى سورة الأنعام: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (١٣٦)﴾ [الأنعام].

وقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾، يصح أن يكون الضمير عائدا على الأوثان، ويكون المعنى: ويجعلون للأوثان التى هى أحجار لا تعلم شيئا، ولا تضر ولا تنفع، نصيبا مما رزقناهم، وأعيد الضمير إلى الأوثان على أنه ضمير العقلاء؛ لأنها كذلك فى زعمهم، فيكون ذلك تهكما بهم.

ويصح أن يعود الضمير إليهم كالضمير فى ﴿وَيَجْعَلُونَ﴾ والمعنى على هذا يكون: ويجعلون لما لا يعلمون له حقيقة تسوغ لهم أن يعبدوها، إنما هو وهم قد سيطر عليهم من غير حقيقة ثابتة يعلمونها، أو هى صالحة لأن يعلموها إذ هو لا وجود له إلا على أنه حجر لا يضر ولا ينفع، والخيال الناشئ هو الذى جعل لهم ذلك التصور الباطل.

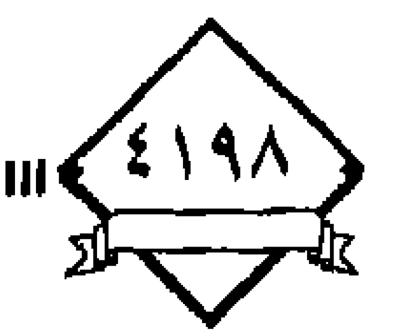
وإن ذلك أعظم الافتراء على الله وعلى الحقيقة؛ ولذا قال تعالى مؤكدا القول بالقسم بذاته العلية: ﴿تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ وهذا تهديد شديد، قد أكده سبحانه بالقسم بذاته العلية وبتلك الصيغة القوية، وهى القسم بالتاء، وباللام، وبنون التوكيد الثقيلة، وأنهم مسئولون عن هذا الافتراء.

وسمى الله سبحانه وتعالى ذلك افتراء وكذبا مقصودا؛ إذ أشركوا، وكذبوا على الله وعلى أنفسهم، وضلوا إذ نذروا لما لا يعلمون له حقيقة، وضلوا بذلك ضلالا بعيدا.

ظلم البنات

قال تعالى:

وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ



بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾

إن الأوهام إذا كانت هى مصدر علم طائفة من الناس فلا تعجب، والأمثال على ذلك واقعة بين أيدينا فى هذا الزمان ومن شأن من تحكمه الأوهام أن يتخيل ثم يظن ثم يتوهم ثم يعتقد، كان العرب يعرفون الملائكة، ويعرفون الله وإنه خالق كل شيء، وأنه المستغاث لكل مستغيث، وأنه الملجأ فى الشديد ولكن خلطوا بذلك أوهاما كثيرة أفسدت تفكيرهم، فأشركوا الأوثان مع الله تعالى، ومن ذلك أنهم توهموا أن الملائكة إناث لا ذكور، وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا، وجعلوها بنات الله تعالى، ثم ذهب بهم فرط أوهامهم إلى أن كان منهم من عبدها؛ ولذا قال تعالى: ﴿ **وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ** ﴿٥٧﴾ ﴾، أى أنهم جعلوا لله البنات ـ تنزه وتقدس عن ذلك ـ ولهم ما يشتهون، وهم الذكور، ومعنى يشتهون يختارون راغبين ملحفين فى الدعوة حتى كأنهم شهوة يشتهونها؛ لأنهم يرونهم امتدادا لوجودهم، ولأنهم يرون فيهم النصرة فى الحرب؛ ولذا كان الرجل يكون فى قوة ببنيه ويكون أعز نفرا، ولقد نعى الله تعالى عليهم أن قالوا لله تعالى ولدا، فقال تعالى: ﴿ **أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ** ﴿١٥١﴾ **وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ** ﴿١٥٢﴾ ﴾ [الصافات]، وأن ذهب فرط أوصافهم أن يقولوا ولد الله بنات ﴿ **أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ** ﴿١٥٣﴾ **مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ** ﴿١٥٤﴾ ﴾ [الصافات] ويقول

سبحانه ردا عليهم: ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾ ﴾ [النجم].

هكذا تدرج بهم الوهم من زعم أن لله ولدا، وإن هذا الولد من الإناث اللائى لا يرغبن فيهن، ثم استرسل بهم الوهم حتى كان منهم من عبد الملائكة، وهم طائفة من الصابئة كانت تعبد الأرواح.

وإن رغبتهم فى الذكور ورغبتهم عن الإناث تدفعهم إلى أن تسود وجوههم عند ولادة الأنثى؛ ولذا قال تعالى:

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

التبشير معناه الإخبار بالأمر السار، أى بالبشارة، وعبر الله تعالى عن ولادة البنت بالتبشير؛ لأنها بشرى بسلامة الأم ولأنها فى ذاتها رزق من الله تعالى، ولأنها قلب يكون له فضل حنان وشفقة لذا كان التعبير بـ﴿ بُشِّرَ ﴾، وقد كان يجب أن يُسرّ لهذه المعانى الكريمة السامية، ولكنه بدل أن يستبشر، بهذه النعمة التى أنعم الله تعالى بها، وهذا الرزق الذى ساقه الله تعالى يكتئب ويحزن؛ ولذا قال تعالى فى جواب الفعل الذى هو البشرى: ﴿ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾، أى صار ودام وجهه مسودا، وذلك كناية عن الحزن والكمد والغيظ، فكان حال الوجه المكفهر تشبه بحال الوجه الأسود، للقتامة، فالبؤس يوجد سوادا فى القلب.

وقال: ﴿ وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾، أى وهو ممتلئ غيظا، وحزنا وغما، و﴿ كَظِيمٌ ﴾ مأخوذ من الكظامة، وهو شد فم القربة، والمهموم الحزين ينطبق فاه فلا يتكلم كمدا، والمشابه حاله بحال الكظامة التى تشد بها القربة، ولكن القربة تسد على الماء وقد يكون قراحا، أما هذا فيشد فمه على أقراح الهم والغم والحزن.

وإنه يكون على هذا الغم محسا بعار، لخشيته على عرضها، ولخشيته من قهرها وذلها، وهى مهما تكن بضعة منه؛ ولذا قال تعالى: ﴿يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ﴾ لا يلقاهم خزيا وعارًا من سوء ما بشر به، وهنا جمع سبحانه بين السوء والبشرى، فسماه سوءًا بالنسبة له ولقومه، وسميت بشرى بشر بها فى حقيقتها، لأنها نعمة، والإخبار بالنعمة بشرى.

وتحدثه نفسه فى هذه النكبة فى زعمه الفاسد، وإدراكه الباطل ﴿أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ﴾، والضمير فى ﴿أَيُمْسِكُهُ﴾ يعود على لفظ ﴿مَا بُشِّرَ بِهِ﴾، فهو يعود على (ما)، ولذا ذُكِّر الضمير، وإن كان موضوع (ما) هو الأنثى، ﴿عَلَىٰ هُونٍ﴾، أى على ذل وهوان كهذا المبشر به، والهوان فى لغة قريش، وعذاب الهون هو عذاب الهوان والذل، ﴿أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾، أى يدفنه فيه، وعبر سبحانه بـ﴿يَدُسُّهُ﴾، بدل يدفن، لأن الدفن يكون للميت، وهذه على قيد الحياة وهى الموءودة، وكان يفعل ذلك قبائل من مضر ومن كندة وخزاعة وهى غلظة فى الأكباد، وحمق فى العقول وضلال فى الفكر، وكان بجوار هؤلاء الحمقى القساة، فضلاء عقلاء رفقاء، فكانوا إذا علموا برجل يريد أن يوئد ابنته فدوها بالإبل، وقد قالوا: إن صعصعة بن ناجية عم الفرزدق إذا أحس بشىء من ذلك وجه إلى والد البنت إبلا يستحييها، وقد قال الفرزدق مفتخرا بعمِّه هذا.

وعمِّى الذى منع الوائدات   وأحيا الوئيد فلم يوده

وإن امتهان المرأة ذلك الامتهان لم يكن عند العرب وحدهم، بل كان عند الفرس، وكان عند الرومان، ولم يكن فى القانون الرومانى أى حماية للمرأة، بل كانت تعد المرأة أمة فى بيت أبيها، لو قتلها لا يسأل لم قتلها، وإذا انتقلت إلى بيت زوجها كانت أمة أيضا، ولو قتلها لا دية لها، ولا ملام، وقال تعالى: ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ ألا للتنبيه وساء فى فعل التعجب فالمعنى ما أسوأ ما يحكمون لأنه سخط وظلم وفساد فى التفكير.

ولما جاء القرآن كرمها وجعل لهن من الحقوق مثل الذى عليهن من الواجبات، وواجب تأديبها وتعليمها، فقال ﷺ: «**من كانت عنده بنت فأدبها فأحسن تأديبها وعلمها فأحسن تعليمها، وأسبغ عليها من نعم الله التى أسبغ عليه كانت له سترا أو حجابا من النار**».

وإن سبب ذلك الانحدار فى التفكير بالنسبة للأنثى هو الكفر باليوم الآخر، ولذا قال تعالى:

﴿ **لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** (٦٠) ﴾.

إن الإيمان بالآخرة إيمانا صادقا مذعنا يلقى فى النفس الاطمئنان على المستقبل، فلا يكون فى لهج وهلع من الناحية المالية؛ لأنه يعرف أن هناك يوما آخر، يعطى فيه من حرم من ملاذ الدنيا وشهواتها، ولا يكون حريصا شحيحا، ولا يكون خائفا من فقر ينزل به ما دام عاملا، وإن أصابه فقر فإلى ميسرة، وأما من لا يؤمن بالآخرة فإنه فى فزع، وخوف وتقتير، ويظن الظنون فى قابله غير معتمد على الله تعالى، فهو فى الولد، يخشى الفقر فيئد البنت ويفرح بالولد؛ لأنه يكفيه عيشه، والبنت يخشى عليها القهر والذل، وفوات الكفء وغير ذلك.

ولذا قال تعالى فى حال البشرى بالبنت، وخشية الفقر والعار والقهر لها مشيرا إلى أن سبب ذلك هو عدم الإيمان بالآخرة، فقال تعالى: ﴿ **لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ** ﴾، أى حال السوء دائما يخشون الفقر والقهر، والجوع كمثل الذين يحددون نسلهم الآن خشية الجوع، والله تعالى يقول: ﴿ **وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ** ... (٣١) ﴾ [الإسراء]، فمن لا يؤمن بالآخرة تكون حاله حال سَوْء وخوف، وهمٌّ دائم، وفى مقابل ذلك من يؤمن بالآخرة، فإنه مطمئن إلى ربه، طالبًا رضاءه يفوض أموره لله، وهو العزيز الحكيم؛ ولذا قال تعالى: ﴿ **وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾، ولله الحال العليا التى لا سَوْء

فيها، ولا خوف من الفقر، والمقابلة بين الذين لا يؤمنون بالآخرة، وبين الله وهى مقابلة بين كان منهم من الإنسانية فى المنزلة الدنيا، والله العلى القدير العزيز الحكيم، وأنى يكون ذلك؟ والجواب عن ذلك: إن المقابلة بين من هم فى أدنى الإنسانية، ومن هم فى أرقاها من بنى الإنسان أيضا؛ لأن الله تعالى يدعوهم إلى أن يكونوا مع الله تعالى. ليؤمنوا بعظمته، ويتوكلوا عليه، فيكونوا فى أحسن حال، وأعلى مثل وصورة، لأنهم يكونون مع الله، متوكلون عليه ومتبعون لأوامره، ومجتنبون لنواهيه.

وختم سبحانه الآية بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، أى وهو الغالب الحكيم الذى قدر كل شىء تقديرا ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ... (٦) ﴾ [هود].

وإن الله تعالى يعلم ظلم الناس وظلمهم للنساء؛ ولذا قال تعالت كلماته:

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ (٦١) ﴾.

إن الله تعالى هو الرزاق ذو القوة المتين، وهو القادر على كل شىء وهو العليم بما يفعله الناس، ولكنه لا يؤاخذ الناس على ظلمهم، وقت نزول الظلم، بل يؤخرهم، ولذا قال تعالى:

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ﴾.

(لو) حرف امتناع لامتناع، أى امتنع عذاب الله تعالى لأنه سبحانه لا يؤاخذ الناس بظلمهم، وإن الناس منهم من يشركون بالله، وإن الشرك لظلم عظيم ومنهم من يقترف الآثام المخزية المفسدة للجماعات، ومنهم من يعتدى، ولا يعد القوى قويا إلا إذا اعتدى كما قال الشاعر الجاهلى زهير بن أبى سُلْمَى.

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعله لا يظلم

والظلم ماحق للخير، وإن الله إذا آخذ الناس بظلمهم المستمر المتوالى لعمهم بعذاب من عنده، بريح صرصر عاتية، أو يخسف بهم الأرض، أو يجعل عاليها سافلها، أو بأن تجف السماء فلا تمطر، فيكون الجدب ثم الموت، وبذلك يهلك الناس والدواب، ولم يبق على ظهرها غاثية أو راغية، وبذلك يموت الجميع ولا تبقى دابة، وخلاصة المعنى أن الله تعالى لو آخذ الناس لعمهم بعذاب لا يترك منها دابة تدب على وجه الأرض، فنقمة الظالم تعم ولا تخصه، كما قال تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ... (٢٥) ﴾ [الأنفال]، والتعبير بالمضارع فى قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ... ﴾ فيه نفى للمؤاخذة فى المستقبل، كما لم يؤاخذ فى الماضى، لأن الله عدل لا يأخذ المطيع بجريمة العاصى، ولا يأخذ العجماء بجريمة الإنسان.

﴿ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾، حيث يمكن تمييز الظالم من العادل، والمسىء من المطيع، والمسئول من غير المسئول، فإذا جاء أجلهم الموقوت لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون، والسين والتاء للطلب، والمعنى ليس لهم أن يطلبوا التأخير والتقديم، بل هو لاحق بهم ما يستقبلهم والله أعلم.

وبعد ذلك أشار سبحانه إلى ظلمهم فى النساء، وهو ظلم مستمكن فى نفوسهم.

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ (٦٢) ﴾.

ويجعلون ما يكرهونه، أى ما كان غير مرغوب فيه منهم يجعلونه لله، فيجعلون لله البنات، لأنهن مكروهات عندهم، ويجعلون مما ذرأ من الأنعام والحرث ما يكرهون، ويجعلون لآلهتهم ما يحبون، ويستخفون برسله لأنهم يكرهونهم وفى الجملة كل شىء لا يهوونه يجعلونه لله تعالى.

﴿ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ ﴾، أى تقول ألسنتهم الكذب، وعبر عن القول بالوصف لأنهم يصفون الباطل، بأنه حق، فهو قول يتضمن وصفا باطلا، يصفون

﴿أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى﴾، الحال الحسنى التى لا يعلو عليهم فى الحسن شىء فى الدنيا والآخرة، أما فى الدنيا فإنهم قد زين لهم سوء عملهم فرأوه حسنا، وما هو بالحسن، وغرهم الغرور فاستطابوا ما هم عليه من فساد، وحسبوا أنهم بظلمهم الأعلون، وغرهم بالله الغرور، وأما فى الآخرة فقد قاسوا حالهم فى الدنيا على حال فى الآخرة، كما قال الله تعالى عن أحدهم: ﴿...وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ ... (٥٠)﴾ [فصلت].

وقد رد الله تعالى قولهم بقوله سبحانه: ﴿لا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾، أى حقا لا كسب لهم من خير أو حسن ﴿أَنَّ لَهُمُ النَّارَ﴾ يدخلونها، وليس لهم الحسنى ينالون خيراتهم، وأكد سبحانه ذلك فقال: ﴿وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾، أى مقدمون فى النار، كالمفرط إلى الماء أى المقدم، وهذا على قراءة فتح الراء مع تخفيفها، وقرئ بكسر الراء مع التخفيف، ويكون المعنى مفرطين فى الظلم والمعاصى، وبذلك استحقوا النيران، وقرئ بكسر الراء مع التشديد ويكون المعنى أنهم مفرطون فى طاعة الله تعالى أهملوها، وتركوها فتركهم الله تعالى وصاروا نسيا منسيا.

والقراءات الثلاث متواترة، فيصح أن تراد كلها، فهم فى مقدمة أهل النار فيردونها كما يرد القوم إلى الماء، وهم مفرطون فى المعاصى، ومفرطون فى الطاعات، والله من ورائهم محيط.

رسالات الله والعظة فى خلقه

قال الله تعالى:

تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣) وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ

ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾

الكلام مفصول عما قبله باللفظ، وإن كان المقام بيان أحوال الشرك، وكيف يزين للمشركين سوء عملهم، فيرونه حسنا، وهو السوء فقال تعالى:

﴿ **تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴿٦٣﴾ ﴾ أكد سبحانه وتعالى بالقسم، وباللام وبقد، وكان القسم بالباء، لا بالباء ولمعنى الشدة فى مخرجها، كان فى القسم بهذه الصيغة تشديدا، و﴿ **أَرْسَلْنَا** ﴾ أضاف الإرسال إليه سبحانه وتعالى وليعلم أن الرسالة من الله سبحانه وتعالى رب هذا الوجود، والأعلم بما يصلح الناس، وما يخاطبون به، وما يبلغون الرسالة عن طريقهم، وأنهم رجال يأكلون ويشربون ويمشون فى الأسواق، ويموتون، كما قال الله تعالى: ﴿ **وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ** ﴿٣٤﴾ ﴾ [الأنبياء].

وقوله تعالى: ﴿ إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ إلى أمم مختلفة أزمانهم متباينة مشاربهم وأجناسهم، ولكنهم التقوا على أمر جامع بينهم، وهو الشيطان يزين لهم أعمالهم الفاسدة المفرقة لجمعهم؛ ولذا قال سبحانه: ﴿ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ و(الفاء) للترتيب والتعقيب، أى أن الله تعالى أرسل إليهم الرسل بالهداية، فكان وراء الرسول الهادى تزيين الشيطان يهدم ما يدعو إليه الرسول يزين فى قلوبهم الخبيث فيجعله حسنا فى زعمهم، والله تعالى يقرر على لسان رسوله أنه باطل ما يصنعون.

وتزيين الشيطان لهم، أنه يأتيهم من قبل أهوائهم وشهواتهم فيزين لهم الشر فيما نهى الله عنه، كما قال جد الأبالسة لأبى الخليقة آدم ﴿ ... مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الأعراف].

﴿ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ ﴾ الفاء لترتيب ولايته لهم، أى الولاء والمحبة على التزيين، أى أنه إذ زين لهم الشهوات فحسبوها المصلحة والحقيقة الحسنة العقبى صار صاحب الولاية، والولاء والمحبة منهم يسيرهم كما يشاء.

والضمير فى ﴿ وَلِيُّهُمُ ﴾ يصح أن يعود إلى الأمم، أى أن الشيطان بعد هذا التزيين صار صاحب الولاية عليهم، يصرفهم اليوم كما يشاء فأسلموا زمامهم له، وفى ذلك سلوى للنبى ﷺ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات، ويصح أن يكون الضمير يعود على قريش بقياسهم على من سبقوهم، وتقرير أنهم أولياء الشيطان بهذا التزيين المستمر، ثم ذكر العاقبة، فقال عز من قائل: ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾، أى مؤلم إيلاما لا نعرف له فى الدنيا حدودا، وولايتهم على أى حال فى الدنيا، وأما فى الآخرة فيتبرأ منهم.

وقد بين سبحانه وتعالى: أنه أنزل الكتاب على محمد ﷺ ليكون جامعا لما سبقه مبينا الحق فيه فقال:

﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

ولقد بين سبحانه وتعالى أن الكتاب مهيمن على الكتب قبله، وحاكم على الناس فيما اختلفوا فيه، وما يختلفون إلى يوم القيامة، فإن رجعوا إليه اهدوا إلى الحق، وإلا فهم فى ضلال بعيد.

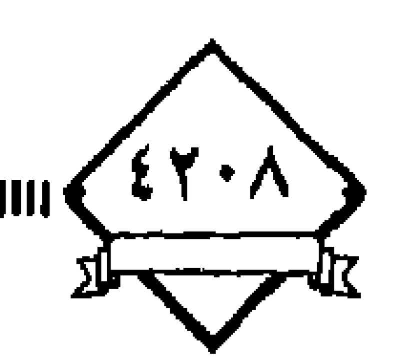
قال سبحانه: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ فقد اختلفوا فى البعث، وقالوا: عيسى ابن الله، وقالوا: عزير ابن الله، وحرفوا فى الرسالات، وبدلوا وغيروا، وأحل اليهود الربا، وقد حرم عليهم وأكلوا السحت والرشا، فكان لا بد من مرجع يرجع إليه فى معرفة الحق فيما اختلفوا فيه، فكان محمد الذى نزل القرآن عليه هو المبين، وأسند البيان إلى النبى ﷺ مع أن المبين هو القرآن وذلك لسببين:

السبب الأول: بيان أن النبى ﷺ هو من القرآن، وإن القرآن نزل من عند الله تعالى عليه.

والسبب الثانى: أن القرآن يحتاج إلى مبلغ يبلغ حقائقه، ويعلم الناس به، يبين مجمله، ويخص عمومه، ذلك المبلغ هو النبى ﷺ ولذا أضيف التبين إليه ﷺ، وهو تكليف كلفه.

وقوله تعالى: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ هنا أمران فى القرآن غير الأمر الأول، وهو أن فيه بيانًا للشرائع السائغة، وما اختلفوا فيه حولها، فهو شاهد على الكتب السابقة، ومبين الحقائق فى الرسالات الإلهية، وحكم عليها، لأنه آخر لبنة فى صرح النبوة، وهو كمال الرسالات كلها.

وهو أيضا هدى ورحمة ـ ففيه الهداية من الضلال فى متاهات الأوهام، فيه التوحيد، وقد زينت الأوهام الشرك، وفيه تحريم ما لم يحله الله، وإحلال الحلال وتبيين الحرام، فهو الهادى المرشد، كما قال الحق: ﴿... إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (٢)﴾ [الجن].



وفيه الرحمة، وهى شريعته المحكمة، فهى رحمة للناس، وهى الشفاء لأدوائهم والرحمة بالمهديين منهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧)﴾ [الأنبياء] ففيها الرحمة بالمجتمع، وفى عقوباتها الزاجرة رحمة بالكافة ووصفه سبحانه بأنه هدى كأنه ذاته هداية ورحمة لفرط ما فيه من هداية ورحمة.

وهنا أمران بيانيان يشير إليهما سبحانه:

الأمر الأول ـ أن قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ...﴾ فيه نفى وإثبات، وهو يفيد الحصر، أى ما أنزلنا عليك الكتاب إلا لبيان ما جاء به من رسالات للأمم، ولما فيه من هدى ورحمة، وشريعة محكمة صالحة، وفيه إشارة إلى أن هذا الكتاب خاتم الرسالات.

الأمر الثانى ـ أنه سبحانه وتعالى ذكر الكتاب معرفا بأل الدالة على كماله، وإنه الكتاب الجدير بأن يسمى كتابًا وحده، وقد بين سبحانه أن هدايته ورحمته لمن يؤمن به ويذل ويذعن لحقائقه، وينفذ أحكامه بحذافيرها لا يغادر منها صغيرة ولا كبيرة إلا نفذها لأنه خير كله، والله أعلم.

بعد أن بين سبحانه ما يحيى النفوس أخذ يذكر سبحانه ما منّ به على خلقه مما يحيى الأجسام:

﴿وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٥)﴾.

ابتدأ سبحانه بما يحيى النفوس، وكان ذلك بإرسال الرسل مبشرين ومنذرين رحمة من عنده، وأنزل الكتاب الكريم الذى هو حكم ومهيمن على كل ما أنزل قبله من كتب، وما كان من الناس راشدين أو ضالين، وكيف كان ضلالهم، وكان ابتداؤه سبحانه بما يحيى النفوس التى كانت ميتة من غير هداية، واتباع للنبيين كقوله تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ ... (١٢٢)﴾

[الأنعام]، لأن حياة الروح أزكى وأغلى، وهى التى تليق بالإنسان، وبغيرها يكون سندى، والجسم يشترك فيه مع البهائم التى هى مسخرة لخدمة الإنسان فى هذه الأرض كما خلقها سبحانه.

﴿وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ المراد ما علا، وأنزل الله السماء من أعلى حيث تتكون السحب الثقال حاملة الماء عذبا فراتا فى بخار يتكاثف، ويصير ماء ينزل مطرا مدرارا، ويكون غيثا، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ (٤٣)﴾ [النور].

ينزل الله سبحانه الماء فينبت الزرع، ويسقى به الشجر، ويكون منه الثمر، فمن الماء كل شىء حى، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ الإحياء بإنبات الزرع فيكسوها بخضرة ناضرة يجعلها ذات منظر بهيج تزيد به، كأنه حلية لحسناء، وتبسق به الباسقات من الأشجار تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها.

وسمى الله تعالى الأرض من غير نبات بالميتة تشبيها للأرض القفر الجرداء بالميتة؛ لأنه ليس على ظهرها حياة، وجعل الماء سببا لإحيائها، كما قال تعالى: ﴿... وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ... (٣٠)﴾ [الأنبياء].

إن إنزال المطر الذى فيه الحياة لآيات لقوم يسمعون الحق ويتبعونه، ويؤمنون به، وكان ظاهر السياق أن تكون هذه لقوم ينظرون، ولكنه عدل إلى السماع فقال عز من قائل: ﴿لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ للإشارة إن النظر لا يبصر المعانى إذا لم يكن قد سمع الحق، وأذعن له، وكذلك العقل لا يفكر إذا لم تكن هداية من السماء له، فلا يعتبر بنعم الله تعالى إلا من سمع الحق وآمن به وأذعن له، وإلا فهى غاشية لا يبصر ولا يدرك، إن هو إلا كالأنعام أو أضل سبيلا.

وقد أخذ يقص الله تعالى نعمة الأنعام التى تجىء من إحياء الأرض بالزرع والغراس التى تغرس من أشجار وفاكهة فقال تعالى:

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ (٦٦) ﴾.

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ﴾، الأنعام جمع نعم أو اسم جنس للنعم على كلام سيبويه، والنعم هى الإبل والبقر والغنم، ويشبهها طائفة لها خواصها، وطهارة لحمها وأكله مثل الغزال، وذوات القرون وغيرها من الأنواع التى تشابه بها فى الخلق والتكوين والأكل والمرعى، والذى كان معروفًا فى الدواجن عند العرب الإبل والبقر والغنم، وهى التى وجبت فيها الزكاة ابتداء، وثبتت فى غيرها إذا أمكن اقتناؤها للنماء، وصارت ذات نتاج يكون نماء لها، فالزكاة سببها أو وعاؤها مال نامٍ.

والعبرة التى ذكرها القرآن الكريم فى خلق النعم من نواحٍ كثيرة، فهى فى خلقها وجمالها حين تريحون وحين تسرحون، وفى تذليلها للإنسان وإلفها له لتذل له وتخضع وتستكين فبها يحرث الحرث وعليها يحمل أثقالاً ومن أرواثها يكون السماد الصالح، ومنها يتخذ الدفء والغطاء ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها يتخذ متاعا إلى حين.

وهكذا تتكاثر أوجه الانتفاع وكل ذلك بتسخير الله تعالى لمن أراد أن يعتبر ويؤمن بنعم الله تعالى ويشكرها كما أنعم، وقد ذكر سبحانه وتعالى بعض العبرة فى الخلق والتكوين، وفيما يكون منها من لبن سائغ للشاربين، فقال عز من قائل: ﴿ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ ﴾.

﴿ نُّسْقِيكُم ﴾ تقرأ بالضم وفعلها أسقى وهى لغة جاءت فى قوله تعالى: ﴿ وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا (١٦) ﴾ [الجن] وهناك قراءة بالفتح وفعلها سقى، وهى تستعمل بمعنى أسقينا، وبمعنى أسقى من البئر، كقوله تعالى:

﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤) ﴾ [القصص].

وقوله: ﴿ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ ﴾.

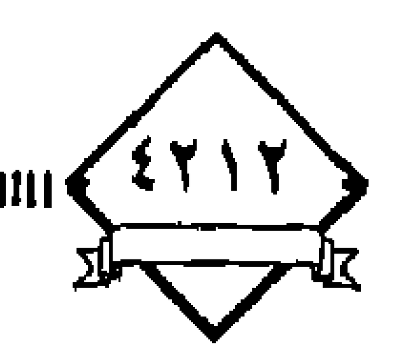
الضمير فى ﴿ بُطُونِهِ ﴾ يعود إلى النعم، أو بعض هذه النعم، وهو الإناث منها، وفى عودته لبعضها لا بد من مسوغ يدل عليه، فنقول: إن (من) الأولى تدل على التبعيض فهى تشير إلى أن الضمير يعود على بعض، وإن ذلك وإن كان جائزا هو بعيد فى السياق، والأقرب منه أن يعود إلى الأنعام، والأنعام لفظ مفرد عند سيبويه، فصح أن يعود بلفظ المفرد المذكر، وذلك معقول، لأن الأنعام على فرض أنها جمع هى جمع النعم، ونعم اسم جنس يدل على الكثير، ولكن لفظه مفرد فصح أن تكون الأنعام بمعنى نعم، ولكن ورد مثل هذه الآية الضمير بلفظ المؤنث كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٢١) ﴾ [المؤمنون].

وقوله تعالى: ﴿ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ ﴾، و﴿ مِن ﴾ للابتداء، أى تكون بين فرث ودم، والفرث فضلات الطعام، وقد قال ابن عباس: إن الدابة تأكل العلف فإذا استقر فى كرشها طبخته، فكان أسفله فرثا، وأوسطه لبنا وأعلاه دما، وهذا معناه أنه فى الوسط بينهما اللبن، وقد يكون ذلك التفسير من الناحية العلمية مقربا، ذلك أن أكل البهائم يهضم، ثم يتمثل جزء منه فى الدم، وجزء ينزل لبنا درا.

وقد وصف اللبن بوصفين:

الوصف الأول ـ أنه خالص ليس فيه اعتكار بدم، ولا بقية من روث، بل هو صاف نقى لا عكرة فيه.

والوصف الثانى ـ أنه سائغ للشاربين، أى يستسيغونه ولا يمجُّونه، وفيه إشارة إلى أنه طعام سهل سريع الهضم والتمثيل وكل طعام تقبله معدات بعض



الأشخاص، وتعافه الأخرى، إلا اللبن، فإنه سائغ للجميع، والله ولى النعم، والمستحق وحده لشكرها.

وقد ذكر سبحانه نعمة أخرى للماء ينزل على الأرض فقال:

﴿ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٦٧) ﴾.

فذكر سبحانه وتعالى أن المطر ينزل فيكون الزرع ويكون العشب الكثير ومن هذا العشب يأكل الغنم، وفيها أن الله تعالى يسقينا من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين.

وقد بين بعد ذلك الثمرات التى تؤخذ من الأشجار فقال عز من قائل: ﴿ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ ﴾ هنا كلام محذوف تقديره يتخذون ما تتخذون مما يسخر لكم منها فتأخذون ثمرات طيبات وأكلها حلو دائم، وأنكم ﴿ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا ﴾، أى شيئا مُسكِرًا، والمسكر مبغض إلى أهل الإيمان، وهى تدل على أن الخمر مشروب غير مباح، وإذا كان قد ترك زمانا فهو فى هذه الأزمان كان محل عفو، حتى جاء التحريم القاطع الذى لا ريب فيه فى آية سورة المائدة، كما بينا ذلك فى موضعه.

وإن السكر مقابل بالرزق الحسن فيكون السكر رزقا غير حسن، وإذا كانت هذه السورة مكية فإن معنى مجىء هذا الكلام فى سورة مكية يدل على أن القرآن الكريم ومحمد ﷺ لم ينظر إلى الخمر نظرة رضا، أو نظرة غير كارهة بل نظرته لها نظرة كارهة من أول مجىء الإسلام إلى أن بين الله فيها بيانا شافيا بالتحريم القاطع.

ويلاحظ أن الله تعالى ذكر النخيل والأعناب فى هذه الآية ولم يذكر غيرهما لأنهما كانا الكثير عند العرب، وهناك نعم أخرى كثيرة فى أغراس كثيرة، كالرمان والتفاح، وغيرهما من الأغراس التى يتخذ منها سكرًا ورزقًا حسنًا. وقد قال

تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾، أى فى هذا الذى ذكره الله تعالى لآية دالة على قدرة الخالق ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، أى يُعملون عقولهم، وذكر الفعل فى نهاية الآية التى جاء فيها السكر، إيماء إلى ما يفعله السكر فى العقول.

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨)﴾.

الحيوانات كلها تسير بإلهام الله تعالى، فأم الحيوان ترضع وليدها، وتحنو عليه وترعاه بفطرتها، وكأنها أم مثل أمهات بنى آدم تدفئه وتقيه الحر والبرد.

وإن ذلك الإلهام يصح أن يسمى وحيا؛ لأنه إلهام من الله تعالى، ولذلك قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨)﴾. واختص سبحانه وتعالى النحل بتسمية إلهامها وحيا، لأنها ألهمت نظاما محكما دقيقا يعجز عنه بعض العقلاء، فهى ألهمت أن يكون لها رئيس وهو يسوسها وهو ينصف بينها ويحكم بالعدل، وينفى القذى حتى إنه لو رميت على إحداها نجاسة قتلها تطهيراً للجماعة، وأن تعيش طهورا، وإذا ظهر فيها رئيس قاتل الأصيل ذلك الرئيس ونصروه عليه، وإنها لتبنى بنيانها بإحكام فتجعله على شكل مسدسات لكى يكون البناء محكما، ولكى يكون كل فراغ مسدود، وتجتمع جموع النحل، تذهب مجتمعة فى غدوها ورواحها وفى غذائها وفى ريها حتى إنها تكون ذات منظر بديع يدل على إحكام الاتحاد بحيث لا تنأى عن الجمع واحدة، وهى تراقب نفسها بحيث إذا هلكت إحداها أخرجته، وكأنها تدفعها خارج الأحياء، وهكذا، وفى طبعه النظافة فرجيع النحل يخرجونه خارج الخلية، ويقول الغزالى فى الإحياء «لا يأكل من العسل إلا مقدار شبعه، وإذا قل العسل فى الخلية قذفه بالماء ليكثر، خوفا على نفسه من نفاده، وإذا نفد النحل أفسد بيوت الملكات، وبيوت الذكور، وربما قتلت ما كان منها هناك».

ولهذا التنظيم العجيب الذى يعجز عن بعضه أصحاب العقول، قال الله

تعالى بالنسبة للنحل، ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ وأضاف الإيحاء إلى الرب سبحانه، لأن ذلك الوحى فيه فائدة للإنسان، وهو من مقتضى الربوبية، ومن النعم التى أنعم الله تعالى بها على عباده فيما تخرجه من بطونها من شفاء للناس.

﴿أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾، ﴿أَنِ﴾ تفسيرية، وما بعدها تفسير لما قبلها، فالوحى هو أمر الله تعالى لها أن تتخذ من الجبال بيوتا تعيش فى كهوفها، وتبيض بيضها فيها، ﴿وَمِنَ الشَّجَرِ﴾، أى تأخذ من فروع الأشجار بيوتا تصنع فيها ما يصنعه صاحب البيت فيه، ﴿وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾، أى مما يعرشون على سقوفهم، ومما يعرشونه لها من خلايا.

و﴿مِنَ﴾ للتبعيض، أى يتخذون بعض الجبال وبعض الشجر وبعض مما يعرشون، وما يخصص لها من خلايا يكون كله لها بهذا التخصيص، ثم قال تعالى:

﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

عطف سبحانه وتعالى بـ﴿ثُمَّ﴾ للتراخى بين اتخاذ البيوت من الجبال والأشجار ومما يعرشون، وذلك إشارة إلى أنها تبذل فى البيوت نظاما محكما دقيقا مما يأخذ وقتا طويلا، والله تعالى يأمرها بمقتضى الفطرة التى فطرها تعالى: ﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ فلا تفرق بين الزهور فكلها طعام لها، فتأخذ من نوار كل زهرة، لا فرق بين زهر مر، وزهر حلو، وتأخذ من كل الثمرات تأخذ البنفسج والبرتقال والخوخ، والقطن ثم ينساغ فى بطنها، ثم تخرجه بعد ذلك عسلا حلوا، مشتبه طعمه ويختلف لونه، ويكون لونه على حسب المرعى، فلون البنفسج يبدو إذا كان غذاؤه من البنفسج، ورائحته تكون مثله، ولون البرتقال إذا كان كذلك، وقال تعالى: ﴿فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً﴾ وهى حال من السبل، أى أن طرائق الله التى ألهمك إياها مذللة سهلة غير مجهولة تغدو من هذه السبل، وتروح منها غير مجهولة لها، ولو ذهبت فى طلب الرزق إلى آماد بعيدة.

وهذا كله على أن ﴿ذُلُلاً﴾ حال من السبل، ويصح أن تكون حالا من ضمير ﴿فَاسْلُكِي﴾ فيكون حالا من النحل، والمعنى اسلكى سبل ربك حال كونك مذللة لما خلقك الله تعالى وهو أن تأخذى الثمرات وقد تمكنت منها ومن الطريق إليها، مسخرة لما خلقك الله تعالى له سبحانه.

ويقول سبحانه: ﴿يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾ فما بين أبيض وأصفر وبنفسجى ووردى، وذلك على حسب الغذاء الذى يتغذى به النحل، وعلى حسب سن النحلة التى تخرجه.

وقد قالوا: إن العسل تمجه لعابا، ولا يخرج من بطنها، والجواب عن ذلك أنه ينساغ فى بطونها عسلا ثم تمجه لعابا، وهو يتكون أولا فى البطن، ومع اختلاف ألوانه ورائحته يجتمع فيه وصف الحلاوة له.

وقال تعالى: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ﴾ والتنكير هنا للتعظيم، أى فيه شفاء عظيم للناس، ولقد قال بعض العلماء إن فيه شفاء عاما؛ لأن التنكير للتعظيم لأن فيه شفاء لكل الأسقام، وعن ابن عمر أنه لا يشكو قرحة إلا جعل عليه عسلا، حتى الدمل إذا خرج عليه طلى عليه عسلا.

وحكى عن بعض التابعين أنه كان يكتحل بالعسل ويتداوى بالعسل فى كل مرض.

وإن النص القرآنى يدل على أن فيه شفاء عظيما، ولكن لا يدل على أنه تعالى يشفى به كل الأمراض، وحسبه أن يكون فيه شفاء عظيم، وكان النبى ﷺ يداوى به أمراض البطن، روى البخارى ومسلم أن رجلا جاء إلى النبى ﷺ فقال: إن أخى استطلق بطنه، فقال ﷺ: «**اسقه عسلا**»، فذهب فسقاه عسلا ثم جاء فقال: يا رسول الله سقيته عسلا فما زاده إلا استطلاقا، قال: «**اذهب فاسقه عسلا**» ثم جاء فقال: يا رسول الله ما زاده إلا استطلاقا، فقال رسول الله ﷺ: «**صدق الله وكذب بطن أخيك، اذهب فاسقه عسلا**» فبرأ[1].

---

(١) رواه البخارى: الطب - الدواء بالعسل (٥٢٥٢)، ومسلم، واللفظ له: الطلام- التداوى بسقى العسل (٤١٠٧).

ويقول ابن كثير فى التعليق على هذا الحديث:

قال بعض علماء الطب: كان هذا الرجل عنده فضلات فلما سقاه عسلا وهو حار تحللت فأسرعت فى الاندفاع فزاده إسهالاً فاعتقد الأعرابى أنه يضره، وهو مصلحة لأخيه، ثم سقاه فازداد التحليل والدفع ثم سقاه فكذلك فلما اندفعت الفضلات الفاسدة استمسك بطنه وصلح مزاجه.

وختم الله سبحانه وتعالى الآية بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، أى أن فى خلق النحل وإلهامه وتدبيره وخروج العسل المصفى من بطونه لآية دالة على قدرة الله وعظيم خلقه لقوم يتفكرون ويتدبرون فى آياته وما تدل عليه، والله سبحانه وتعالى أعلم.

أطوار الإنسان وأحواله

قال تعالى:

وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ۚ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ۚ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾

هذا بيان للأدوار التى يمر بها الإنسان وهى تدل على عظم قدرة الله فيه، وفيها بيان واضح إلى قدرته على الإنشاء والإدبار وقدرته على الإخفاء، وتحلل جسم الإنسان شيئا فشيئا حتى يكون الموت، وفى ذلك إيماء إلى قدرته سبحانه على الإعادة ﴿ ... كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩) ﴾ [الأعراف].

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ﴾، خلقكم أى أنشأكم من العدم، وجعل من الطين إنسانا فى الخلق وفى عبارة ﴿خَلَقَكُمْ﴾ إشارة إلى إنشائه جنينا فى بطن أمه من علقة فمضغة مخلقة وغير مخلقة، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ﴾ [المؤمنون].

وإن هذا الخلق بعده الوفاة يعيش ما يعيش إن طويلا، وإن قصيرا والمآل الوفاة؛ ولذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ﴾، ﴿ثُمَّ﴾ هنا للتفاوت بين الموت والحياة، ومنكم من يموت فى صباه أو فى شبابه أو كهولته، ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾، ومعنى الرد إلى أرذل العمر أن يرجع منكوسًا إلى ابتدائه، فهو فى أرذل العمر يسير فى السن إلى الأمام، ولكن فى القوى يرد إلى الوراء فقواه تضعف، وتفنى بعض أجزاء جسمه شيئا فشيئا، كأنه من قبل الهرم كانت قواه تسير إلى الأمام حتى تقف، فإذا أرذل العمر أى أخسّه وأعدم حمده يرجع إلى الصبا الذى لا يعلم شيئا.

قال تعالى: ﴿لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾، أى لتصير حاله ألا يعلم، بل ينسى، وأن يكون كل ما يعلمه من جديد مآله النسيان، فلا يزداد علمه، بعد أن كان عالما شيئا، وقد لوحظ أن الذين يصيبهم أرذل العمر ينسون ما كسبوه من علم بعد الشيخوخة ولا ينسون ما كان لهم من حوادث قبل ذلك، فهم يتكلمون عن الماضى ولا يتذكرون ما كان من حوادث بعد أن تصيبهم الشيخوخة، ونلاحظ هنا أمرين:

الأمر الأول ـ أن أرذل العمر يختلف باختلاف الناس، فمنهم من يصيبه الهرم مبكرًا، ومنهم من لا يصيبه إلا مؤخرا.

الأمر الثانى ـ أن بعضهم يصيبه خرف الشيخوخة، والصادقون المؤمنون لا يصيبهم خرف الشيخوخة، وإن كانوا ينسون، ومهما يكن فإن الموت قبل بلوغ أرذل العمر أفضل، ولقد كان النبى ﷺ يدعو ربه ألا يرد إلى أرذل العمر، فقد روى عنه ﷺ أنه كان يدعو «**أعوذ بك من البخل والكسل وأرذل العمر**»[1]، وإن ذلك كله بتقدير الله تعالى وعلمه؛ ولذا قال بعد ذلك: ﴿**إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ**﴾ إن الله بمقتضى علمه قدر كل شىء ونفذه، وهو القادر العليم.

وإن الله تعالى لم يجعل الناس على سواء فى الغنى والفقر فقال تعالى:

﴿**وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ** (٧١)﴾.

هذه بيان حال الإنسان من الغنى والفقر، والسعة فى الرزق، ومن قدر عليه رزقه، وفيه تهيأ الأسباب ليكسب رزقا وفيرا وخيرا عميما فقال: ﴿**وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ**﴾ يسير الأسباب فمنكم من سلك السبيل فنال مالا، ومنكم من لم يكن له سبيل إلى مال فكان فقيرا، ﴿**فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ**﴾، أى فما الذين أوتوا سعة فى المال ومالا كثيرا وخيرا عميما برادى رزقهم أى بجعلهم رزقهم عائدا على ما ملكت أيمانهم من الإماء والعبيد، ليكونوا هم وعبيدهم فى المال على سواء فيكون المال لهم جميعا ويكونون فيه سواء.

يقول الزمخشرى: إن هذا ما ينبغى، فالآية تدل على ما ينبغى أى يجب أن تكون النعمة التى ينالونها فى الرزق تكون ثمرتها عامة بينهم وبين ضعفائهم فلا

---

(١) متفق عليه، رواه بهذا اللفظ: البخارى - تفسير القرآن (٤٣٣٨)، ومسلم: الذكر والدعاء - التعوذ من العجز والكسل وغيره (٤٨٧٩).

يرفلون فى النعيم، والضعفاء فى الشقاء المقيم، يروى أن أبا ذر الغفارى عندما سمع قول النبى ﷺ بالنسبة للعبيد: «**أطعموهم مما تطعمون واكسوهم مما تكسون**»، كان لا يلبس رداء إلا ألبس عبده مثله، ولا يلبس إزاراً إلا ألبسه مثله[1] وقوله تعالى: ﴿**أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ**﴾ الفاء مؤخرة عن تقديم أفبنعمة الله يجحدون ويكفرون، فلا يشكروها فيصروفها فى مصارفها، ويضنُّوا بها عن مواطنها.

هذا هو ظاهر الآية، وقد قال بعض المفسرين: إن المعنى أنكم لا تسوون ما ملكت أيمانكم فى الرزق الذى يرزقكم الله تعالى إياه فكيف عبيد الله والمخلوقات التى خلقها الله تعالى فى العبادة، إنكم تجحدون بهذا ويقولون: إن هذا مثل ضربه الله تعالى ﴿**ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ... (٢٨)**﴾ [الروم] وهذا تفسير ابن عباس.

وكان هناك تخريج ثالث، وهو أن المعنى أن الله رازق الناس جميعا غنيهم وفقيرهم فلا يحسب الموالى أنهم يرزقون، وأنا أرى أن الواضح البين هو الأول، وهو المتسق مع نظام الغنى والفقر، ويروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كتب إلى أبى موسى الأشعرى: إن الرحمن فضل بعض الناس فى الرزق، بلاء يبتلى به كلا فيبتلى من بسط له كيف شكره، وأداؤه فى الحق الذى افترض عليه فيما رزقه وحوله.

وقد بين الله تعالى عمارة الأرض بالوجود الإنسانى، فقال سبحانه:

﴿**وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ (٧٢)**﴾.

---

(١) الحديث بهذا اللفظ رواه مسلم: الزهد والرقائق - حديث جابر الطويل، وقصة أبى اليسر (٥٣٢٨) وهو أصح أسانيده. وقد سبق تخريجه.

هذا بيان الخلق والتناسل، وأنه من الزوجين، وأن الله جعل الزوج من الزوج، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً (١)﴾ [النساء]، وقوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، أى خلق لكم من ذات أنفسكم أزواجا، فتضمنت معنى الخلق، وصيرورتها زوجا، كما فى قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا... (١٨٩)﴾ [الأعراف].

وإن هذه الآية وما يماثلها من الآيات تدل على أن الزوجة خلقت من ذات الزوج ونفسه، وأنهما أصل الوجود الإنسانى وأن عمران الأرض ابتدأ بالأسرة، والأسرة هى وحدة الجماعة الإنسانية، واللبنة الأولى فى بنائه، وقد ابتدأ بالأسرة ومنها تتوالد الأسر فقال سبحانه: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾، والحفدة جمع حافد ككتبة جمع كاتب، والحافد هو المسرع فى الطاعة والخدمة ومنه قول القانت فى قنوته: «وإليك نسعى ونحفد»، والحفدة تشمل أولاد الأبناء وأولاد البنات.

والكلام فى الذرية الذين يتوالدون من الزوجين، وحكى الزمخشرى قولا غريبا فقد جاء فيه «وقيل وجعل لكم الغنى وجعل لكم حفدة، أى خدما يحفدون فى مصالحكم ويعينونكم» وهو قول غريب بعيد عن معنى الآية، لأن الآية فى بيان التوالد الإنسانى من الزوجين والبنين والأحفاد كقوله فيما تلونا ﴿... وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ... (١)﴾ [النساء] فما مناسبته الخدمة وهم أناسى كسائر الأناسى، ولا يكون نعمة على الجميع أن يكون بعضهم خدما؟!.

وإنه سبحانه وقد عمر الكون الإنسانى بهذا التناسل الذى باركه رب العالمين فلم يخرجهم إلى الوجود غير مرزوقين محرومين، بل خلق معهم أرزاقهم، ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾، و﴿مِّنَ﴾ هنا بيانية، والمعنى رزقكم الطيبات، والطيبات

هى الأطعمة والزينة واللبس، والكسب الحلال، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ... (٣٢) ﴾ [الأعراف] والطيبات هى غير الخبائث، وهى الأمور المقززة التى تعافها النفس كالميتة والدم ولحم الخنزير، كما قال الله تعالى فى وصف النبى الأمى فى بشارة التوراة والإنجيل به: ﴿ ...الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ... (١٥٧) ﴾ [الأعراف].

ومع أنه أنعم عليهم بنعمة الوجود ونعمة التوالد وأكرمهم بالرزق الطيب الحلال، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ... (٦) ﴾ [هود].

مع كل هذا أشركوا بالله، واتبعوا الباطل وكفروا بالحق، فقال تعالى: ﴿ ...أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ (٦٧) ﴾ [العنكبوت]، الفاء للإفصاح عن شرط مقدر وتقديم (بالباطل) على الفعل للإشارة إلى أنهم لا يؤمنون إلا بالباطل، ولا يؤمنون بحق قط، وبنعمة الله نعمة الإيجاد والرزق يكفرون ولا يشكرون، وأكد سبحانه كفرهم بالنعمة بتقديم النعمة على الفعل، وبالضمير ﴿هُمْ﴾ والجملة الاسمية.

قال تعالى فى توضيح باطلهم: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ شَيْئًا وَلا يَسْتَطِيعُونَ (٧٣) ﴾ هذا باطلهم وهو أوضح باطل آمنوا به يعبدون غير الله من دونه وهو إشارة إلى مقام معبودهم من الله تعالى ما لا يملك لهم رزقا فى السموات والأرض فلا يملك فى السماء مطرًا يحيى به الأرض بعد موتها، ولا فى الأرض نباتًا يأكل منه الإنسان والحيوان، ولا النعم الذى تكون فى الأرض، ولا الثمرات التى تثمرها الغراس والأشجار، ﴿وَلا يَسْتَطِيعُونَ﴾، أى لا تستطيع تلك المعبودات المزعومة أن تأتى بشىء من هذا، ولكنه ضلال العقل والوهم الذى يسيطر، وأعيد الضمير لمن يعقل تهكما بهم وعلى زعمهم، إذ يعبدونهم.

و﴿ شَيْئًا ﴾ مفعول مطلق، أى أى رزق كان ولو رزقا قليلا، لأنه حجر لا يقدر على شىء وليس فيه حياة فكيف يعبده حي؟! ويصح أن يكون فى معنى الصفة لرزق، أي لا يملكون في السموات والأرض شيئا أي: أي قدرٍ كان.

وأنهم إذ يعبدون ما لا يملك رزقا فى السموات والأرض ولا فى شىء، يشبهونهم بالله سبحانه وتعالى، ويجعلونهم مثله تبارك وتعالى عن الشبيه والمثيل، ولذا قال تعالى: ﴿ فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٧٤) ﴾.

الأمثال جمع مثل أو مثل، ضرب بمعنى بين وجعل والمعنى فلا تبينوا وتجعلوا لله تعالى الأمثال، وهى الأنداد والأشباه والنظائر فى زعمكم، فالله أعلى وأعظم وأنتم لا تعلمون مكانه بل أنتم جاهلون فى ذات أنفسكم؛ ولذا قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾، أى والله تعالى يعلم حالكم، وأوهامكم، وما يجيش فى صدوركم، وأنتم لا تعلمون مغبة زعمكم وإشراككم، وهو العذاب الأليم.

ضرب الأمثال الصادقة

قال الله تعالى:

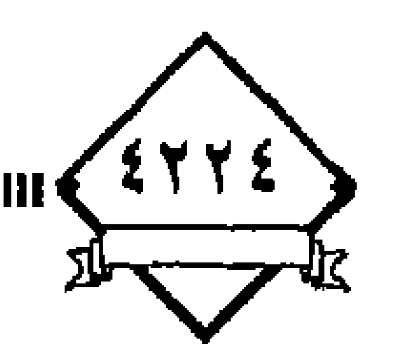
﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٧٥) وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٧٦) وَلِلَّهِ غَيْبُ

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾

بعد أن نهاهم سبحانه وتعالى عن ضرب الأمثال التى شيدوا فيها الأحجار التى كانوا يعبدونها أخذ سبحانه وتعالى يبين لهم الأمثال التى تصور الحقيقة وتهدى إليها، فقال تعالت كلماته:

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْدًا مَّمْلُوكًا لاَّ يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ العبد هو الفتى المملوك، وذكر وصف مملوك ليتميز عن الحر، الذى لا مالك له، وكان التمييز ضروريا؛ لأن الجميع مملوك لله تعالى، يستوى فى المالك، ومن يملكه من الرقيق، ومعنى ﴿ لاَّ يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾، أى لا يقدر على التصرف فى شىء من الأشياء وفى ذلك بيان لأنه مقيد، قد وجد غل الرق فى رقبته، وأثقله، فهو لا يقدر على شىء مادى، ولم تكن له إنابة من مالكه أو عقد مكاتبة، يستطيع به التصرف ليطلق نفسه، بل هو قن مقيد بالرق، ومقيد بأنه لا سلطان له فى التصرف، أى فيه العجز المطلق.

﴿ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا ﴾، (من) هنا نكرة تدل على ما هو فى مقابل المملوك، وهو إلى المالك لكل تصرفاته التى يقدر على كل شىء، ومع هذه القدرة التى ثبتت له بمقتضى الحرية رزقه الله تعالى رزقا حسنا؛ ولذا قال تعالى: ﴿ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا ﴾ والحسن هنا معناه الطيب فى ذاته، فليس خبيثا فى سببه فسببه طيب حلال لا حرام فيه ولا شبهة حرام، وإضافته سبحانه وتعالى إليه لبيان أنه جاء إليه سهلا ميسرا من غير جهد، وإن كان حلالا، ولبيان أن كل الأرزاق من الله وليست الأسباب مؤثرة بإيجاد الرزق إنما هى أسباب جعلية وليست بأسباب



حقيقية لأن كل شيء بيد الله سبحانه وتعالى، فليس سبب الزرع والسقى والرعى والبذر وحدهما، بل السبب الأكبر هو رزق الله العليم القدير، ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الذاريات].

وقد جعل الله تعالى الخير الذى يجيء من الرزق الحسن، فقال تعالى: ﴿ فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ﴾، (الفاء) لترتيب ما بعدها على ما قبلها، الإنفاق هو صرف المال فى مصارفه التى لا يكون الصرف فيه إسرافا، وأطلق فى القرآن على الصرف فى سبيل الخير، فإذا أطلقت كلمة الإنفاق لا يكون إلا فى الصدقات إلا إذا عنى الموضوع غيرها، مثل قوله تعالى: ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ ... ﴿٧﴾ ﴾ [الطلاق] فالإنفاق هنا فى نفقة الزوجية، وإن كان يومئ إلى أنها صلة وليست أجرا محضا، كما يقرر الفقهاء.

وقوله: ﴿ سِرًّا وَجَهْرًا ﴾، يؤكد أنها للصدقات، وإن السرية لها موضعها، وخصوصا لأهل التجمل ذوى المروءات، والجهر فى موضعه عندما تكون دعوة إلى البر فإن الجهر يدعو إلى المنافسة ﴿ ... وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [المطففين].

ثم قال تعالى مقررا النتيجة البديهية وهو أنهم لا يستوون فقال: ﴿ هَلْ يَسْتَوُونَ ﴾ الاستفهام للإنكار، أى إنكار الواقع، وكان النفى بالاستفهام لتأكيد النفى كأن النفى مقرر بالبداهة، وعند المخاطب، فكأنه قد جاء من عنده، ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ كان هذا تأكيدًا للنفى وهو عدم التساوى، أى أنه يحمد الله تعالى للوصول إلى هذه النتيجة التى أخذت من إقرارهم، ثم قال تعالى: ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾، ﴿ بَلْ ﴾ للإضراب، أى كان الإضراب عن علمهم البدهى الذى طمس فيه الهوى على مداخل الفكر والعلم، وكان القرآن الكريم منصفا لحكم على الأكثر لا الجميع بأنهم لا يعلمون أى طمس على قلوبهم بغشاء من الهوى المانع من إدراك الحقائق.

وكانت الموازنة بين اثنين فى ظاهر اللفظ، وهما العبد المملوك، ﴿ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا ﴾، ولكن لأن (ما) يدخل فى عموم ما تدل عليه كثيرون، كان الذين لا يستوون كثيرين فعاد الضمير بالجمع.

وبعد ذلك يقول هذه هى معانى الألفاظ وما تدل عليه بمفرداتها، ولكن ما هو المثل؟ إن المثل تشبيه حال بحال فما موضع التشبيه، وما هو وجه التشبيه؟.

قال أكثر المفسرين: إنه تشبيه ففى حال عبادة الأوثان، والشرك بالله تعالى بحال من يسوى بين العبد المملوك، العاجز عن كل شىء والحر المالك الذى رزقه الله رزقا حسنا، أنهم لا يستوون بالبداهة، فكيف يسوى أولئك المشركون بين الله خالق كل شىء وبين الأحجار التى يعبدونها.

واعترض على تخريج المثل هذا التخريج الرازى بأن العبد المملوك حى، والأحجار لا حياة فيها، وقد أجيب عن ذلك بأن التشبيه ليس بين الأجزاء، إنما التشبيه بين حالين، لا بين الأحجار والآدميين.

وقال ابن عباس: إن التشبيه بين الكافر والمؤمن، فالكافر كالمملوك الذى لا يقدر على شىء وهو عاجز، وبين من رزقه الله تعالى رزقا حسنا، فهو كقوله تعالى: ﴿ ... هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ... (٥٠) ﴾ [الأنعام]، ﴿ ... هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ... (٩) ﴾ [الزمر]، وكذلك التشبيه فى قوله تعالى فى الآية الآتية: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ... ﴾ وهو فيها أوضح وكلاهما واضح، والله أعلم.

ولولا أننا مقيدون إلى حد ما بما قاله من قبلنا لقلنا: إن الله تعالى قال من قبل ذلك بآيتين ﴿ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ وفى هذه الآية والتى تليها، يبين سبحانه كيف كان التفضيل فى الرزق، وهو أن الفقير اختبره الله تعالى بالعجز، وبتقدير منه سبحانه وتعالى، فضاقت أمامه السبل، وأن الغنى آتاه الله تعالى قدرة على الكسب ومكن

له من أسباب الرزق، وبذلك ينتهى البيان القرآنى فى زعمنا إلى تقرير حقيقتين ثابتتين:

الحقيقة الأولى - أن العجز والكسب والكَيْس بتقدير من الله وباختيار منه، فليس لأحد أن يستطيل أو يستكبر فالله هو الرازق.

والحقيقة الثانية - أن الفقر والغنى حقيقتان ثابتتان؛ لأن الله تعالى خلق القوى متفاوتة، والفرص متفاوتة، والأسباب فى الحياة مختلفة فكان جهلا أن يدعى مغرور أنه يذيب الفوارق بين الغنى والفقر، وقد شاع هذا الغرور فى هذه الأزمان كالذى جهل طبائع الإنسان فأفقر ناسا من ذوى الإنتاج، وأغنى العجزة، وكانت أسباب الرزق الحرام طاغية على الحلال المنتج.

قال تعالى فى المثل الثانى، وهو فى معنى الأول، وهو من تصريف الله البيان فى قرآنه المجيد.

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٧٦) ﴾.

وهذا مثل آخر كالمثل الأول، وكان الأول موازنة بين عبد مملوك لا يقدر على شىء، وآخر حر قد رزقه الله وهو ينفع الناس بما رزقه الله تعالى يعطيهم سرا وجهرا على حسب ما يرى، وعلى حسب نيته المحتسبة، والثانى كان موازنة بين رجلين آخرين، ولكن أحدهما عاجز لا يقدر على شىء وهو فى حياته كلٌّ على قريب له هو مولاه لا نفع منه، وآخر قادر فى عقله مستقيم فى خلقه عادل فى ذاته.

قال سبحانه: **﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ﴾**، أى بين حالا لرجلين موازنا بينهما **﴿أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ﴾**، أى أخرس لا يستطيع أن ينطق فلا يجيب إذا دعاه الداعى، والأخرس فى أكثر الأحوال ناقص فى مداركه؛ لأنه قد سدت عليه

مسالك العلم ولا يحس بمعنى الأشياء، والأخرس عادة يفقد النطق لأن النطق بالمحاكاة فهو لا يعلم ولا يستطيع أن يبين هواجسه وخواطره فلا يحس بما حوله، وقد فقد المجلس والأنس، ولا يجلب لنفسه نفعا، ﴿ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلاهُ ﴾، أى حمل وثقل، والمولى هنا القريب أو ذو الصلة به من أى أنواع الصلات الإنسانية، ومن كانت هذه حاله لا ينفع الناس، وقد أشار مع ذلك إلى أنه ناقص المواهب ليس متفتح النفس والإدراك، وعبر الله تعالى عن هذه الحال ﴿ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ ﴾، وثانى الرجلين الموازن بينهما رجل فيه حكمه جعلته يلى بعض الأمر، وقد عبر سبحانه عن ذلك بقوله: ﴿ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ الاستفهام هنا لإنكار الوقوع أى للنفى المؤكد كأنه سئل السائل وأجيب بالنفى وكان الرجل الثانى الذى ينفى المقابلة بينه وبين الأول قد اتصف بصفتين جليلتين مما يعلو الرجال بهما فى الأوساط الإنسانية:

الصفة الأولى ـ أنه يأمر بالعدل، ولا يأمر بالعدل إلا إذا كان هو عادلا فى ذاته، والعدل صفة فى النفس وهى الفضائل التى تدخل فى تكوين المزاج الإنسانى الكامل، فالعدالة فى النفس تزكيها وتنميها وتتجه بها نحو الفضائل، فحيث كانت العدالة النفسية كان الصدق وكان الاعتدال وكانت القدرة على الصبر، فلا تحكمها الشهوات ويكون الانتصاف منها، ويكون تأديب النفس.

وربما يكنى بأنه يأمر بالعدل بتوليه أمور الناس أو بعضهم أو أن يكون الحكم، وهو يشير إلى أنه لا يتولى أمور الناس إلا عدل يأمر بالعدل يأمر كل نوابه وحاشيته ويقوم بالقسطاس المستقيم بين الناس.

الصفة الثانية ـ من يكون مستقيم النفس مخلص القلب، وقد عبر سبحانه عن ذلك بقوله تعالت كلماته: ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾، أى مستقيم النفس ذو طريق حسن وهذه أعلى صفات الإنسان، فهو مخلص وإخلاصه يوجهه إلى السبيل المستقيم، والإدراك المستقيم، والكلام المستقيم، والعمل المستقيم والسلوك العام المستقيم، وعبر سبحانه وتعالى بعبارة تؤكد استقامته بعدة إشارات:

الإشارة الأولى ـ أنه عبر بالجملة الاسمية.

الإشارة الثانية ـ أنه جعله كراكب صراط الاستقامة الجالس عليه؛ ولذا عبر بـ(على) الدالة على التمكن من صراط الاستقامة.

الإشارة الثالثة ـ أنه عبر بالصراط، وهو فى ذاته مستقيم، إذ إنه الخط المستقيم، ووصفه مع ذلك بالاستقامة فكان هذا تأكيدا لفظيا لمعنى الاستقامة فى النفس والخلق والعمل.

وإن الأقوال التى ذكرناها فى المثل الأول تقال هنا، فأكثر المفسرين على أنه سبحانه ضرب حال عبادة المشركين، بحال من يسوى بين رجلين بينهما تمام التباين، فيسوى بين الله تعالى والأحجار، كمن يسوى بين رجل ناقص الإنسانية ورجل آخر كاملها.

وإن كلام ابن عباس ينطبق هنا أيضا، فيكون نفيا للتساوى بين الكافر المشرك، والمؤمن الموحد.

وما بدر إلينا من أنه بيان لاختلاف القوى والأحوال، وتوافر أسباب الرزق وعدم توافرها، وقدر الله سبحانه وتعالى ، وأنه يرزق هذا ويحرم هذا، لعدم السير أو عجزه عن السير فى أسباب الثروة، وأن الوجود الإنسانى يشتمل على هذه الحقيقة، وأن الناس فيهم الغنى والفقير ومن يقول إنه يعمل على إذابة الفوارق بين الغنى والفقر جاهل مغرور، وإن فرض ذلك بالقوة كان ظالما غشوما، وسلب الحقوق ممن ينتجون الحلال، وترك الباب مفتوحا، ليغنى طائفة أخرى بالحرام الذى لا ينتج شيئا.

وإنه من بعد ضرب الأمثال، ومنها يتبين أن الله سبحانه وتعالى يدير العالم بحكمته، وأنه وحده القادر على كل شىء وأن الحساب يجىء لا محالة؛ ولذا قال تعالى:

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٧٧) ﴾.



أحسب أن هذه الآية تشير إلى ما قدره سبحانه وتعالى فى علمه المكنون مما كتبه على الناس من غنى وفقر، وإن كل شىء بقدره، وفى غيبه حتى العجز والكيس، ومع ذلك فيها بيان لما يستعجله الناس من وعيد، ومن قيام الساعة مع أنه قريب وأنه ليس بعسير على الله تعالى بل كلمح البصر أو هو أقرب، واللمح النظر السريع، يقال لمحه لمحًا ولمحانا إذا أدركه بطرف العين أو مجرد حركتها بحركة الرمش، وهو زمن لا يتجاوز ثوانى من دقيقة.

والمعنى وإن أمر الساعة وزمانها وإن استطلتم الزمن الذى يمضى هو عند الله كلمح البصر، أى تحسبونه بعيدا، وهو عند الله تعالى قريب كلمح البصر، فالأزمان تجرى عليكم بالطول والقصر، أما عند الله فإنه لا زمان يحكمه، ولا ظرف يحيط إنما ذلك أعراض لا تكون إلا عند الحوادث، وذلك كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا (٦) وَنَرَاهُ قَرِيبًا (٧)﴾ [المعارج] وكقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ (٤٧)﴾ [الحج]، أى إن الزمن لا يحكم إرادة الله، بل إرادة الله تعالى هى الخالقة للأفلاك والأزمان ومعنى ﴿أَمْرُ السَّاعَةِ﴾ مهما طال زمنها فى نظركم، هو عند الله قريب ﴿أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾، (أو) للإضراب عن وصف أمرها بأنها كلمح البصر، بل هى أقرب من ذلك إن بالغتم فى الاستغراب.

وإنه يراد مع استطالة الزمن أن الساعة إذا جاءت واضطربت السموات والأرض وكورت الشمس وانفطرت الأرض والكواكب انتثرت، كل ذلك يتم فى لمح البصر أقرب من ذلك، فالله تعالى على كل شىء قدير؛ ولذا ختم الآية بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وقد أكد سبحانه وتعالى قدرته بعدة مؤكدات أولها الجملة الاسمية، وثانيها: (إن) الدالة على تأكيد الخبر وهو قدرة الله تعالى، وتقديم ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ على ﴿قَدِيرٌ﴾؛ لأنه يدل على الاهتمام ووصف ﴿قَدِيرٌ﴾، والله أعلم.

وبعد أن بين سبحانه أن الغيب كله فى علمه سبحانه وقدرته، وأن الله تعالى قدير على كل شيء، وأنه خالق العاجزين والقادرين، والمنافقين، ومن لا خير فيه، ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ بين سبحانه أنه خلق الإنسان وعلمه، فقال تعالى:

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

(الواو) هنا عاطفة على قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾، وقد عطف عليها من قبل قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾، وعطف عليهم قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾، وما كان بعد كل جملة من هذه المعطوفات، إنما هو لبيان وجه العبرة فيها، وضلال الشرك وأهله، فهى تابعة لمعانيها، فلا يكون ثمة مانع من العطف عليها.

وإذا كانت معطوفة على قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ فهى لإثبات أن الغنى والفقر أمران مقدوران لله تعالى، وإن الغنى من فضل الله، ويوجب الشكر، والفقر اختبار الله تعالى ويوجب الصبر، ومع الصبر الجزاء، وهو على صورة الصبر شكر لله تعالى.

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾، أى شيئا من العلم بالحياة ومشاربها، ومن العلم بحق الله على عباده من إدراك عظمة خلقه فى تكوينه الإنسان من سلالة من طين، وجعله نطفة فى قرار مكين، وجعل النطفة علقة والعلقة مضغة، وجعل المضغة عظاما، ثم أخرجه من ضيق الرحم إلى سعة الوجود، وهذا ما يشير إليه قوله: ﴿مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ يخرج الجنين من بطن أمه لا يعلم شيئا من طرق الحياة، ولكن يعطيه الله تعالى أسباب العلم بهذه الحياة وما يجرى فيها، وهذا قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ﴾.

﴿وَجَعَلَ لَكُمُ﴾، أى خلق لكم وصيره لكم ﴿السَّمْعَ﴾، والسمع يتضمن النطق؛ لأن النطق لا يكون إلا لسميع، إذ إن النطق لا يكون بالفطرة التى فطر الله

تعالى الناس عليها إلا بالمحاكاة، والمحاكاة لا تكون إلا إذا سمع الكلام بحروفه وعباراته، وحاكاها؛ ولذلك من فقد السمع لا يتكلم، وهو الأخرس كما أشرنا من قبل.

وبالسمع يسمع هداية الله تعالى فى كلام الرسل والصديقين، وكلام رب العالمين، ﴿وَالأَبْصَارَ﴾ بها يرى عظمة الله تعالى فى خلقه، فيرى السماء وقد زينها للناظرين، والجبال والوهاد، والشمس والقمر، والنجوم مسخرات لأمر الله تعالى وإن كل هذه المعلومات الحسية يستودع الله تعالى الأفئدة فتدرك، فالسمع والبصر يجمعان المسموعات والمرئيات والأفئدة تعتبر وتقدر وتدرك، وتستبصر، فيكون الإنسان المعامل فى الحياة المدرك لمعناه الذى يدرك بالبداهة وجوب شكر المنعم؛ ولذا قال تعالى ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، أى رجاء أن تشكروا لتوافر أسباب الشكر، ودواعيه، والرجاء من العباد، ولا من الله سبحانه وتعالى.

نعم الله تعالى توجب الشكر

قال الله تعالى:

أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوْمٖ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتٗا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنٗا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ

ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾

فى هذه الآيات بيان قدرة الله تعالى فى خلقه، وإحكامه وإبداعه، وبيان نعمته على الإنسان ظاهره وباطنه، وكيف سخر الحيوان للإنسان، فتمكن من اتخاذ المأوى، فى الظعن وفى الإقامة، وجعل ظلالا تقيهم الحر والبرد، وسخر لهم النبات يتخذون منه لباسا يقيهم الحر، ومن الحديد سرابيل تقيهم فى يوم البأس، وكان ذلك إتماما لنعمة الله رجاء أن يسلموا، وقد بلغ النبى ﷺ، وبين وأقام الأدلة، وما عليه إلا البلاغ.

ابتدأ سبحانه بالإشارة إلى عجائب الخلق، والتكوين فى الطير التى تسبح فى الفضاء، كما تسبح السفائن فى الماء من غير ماء يحملها، إنما خلقها تعالى لتحمل نفسها، وتتوقى السقوط بأجنحتها، وتسير فى الفضاء كما تسير الدواب على الأرض لاعائق يعوقها، ولا عقبات تمنعها، حتى إن الإنسان عندما أراد أن يستخدم الفضاء تعلم منها، ولذا قال تعالى:

﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللَّهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾.

الاستفهام هنا لإنكار الوقوع، فيكون بمعنى النفى المؤكد بإقرار السامع كأنه سئل وأجاب بالنفى؛ ولذا كان الاستفهام بمعنى النفى المؤكد، وقد دخلت أداة الاستفهام على حرف النفى، ونفى النفى إثبات.

والمعنى لقد رأوا الطير مسخرات، أى مذللات، سخرها الله تعالى لتسير فى الجو، من غير حامل يحملها، ولا ممسك يمسكها، وهى مع هذا مسخرة لخدمة الإنسان، فمنها ما يحمل الرسائل من مكان إلى مكان والشقة بينها بعيدة، ولا يزال يستخدم إلى الآن، ومنه ما هو مسخر للإنسان، يأكل الحشرات التى

هى آفة الزرع، وكان كـذلك يمنع مغارم التنقية حتى أباده الإنسـان ومنها ما يعلم الإنسان، ويحمى الزرع من صغار الطيـر، وقد أبدناه الآن بالمبيدات التى نسلطها، وصرنا ننفق النفقات الكثيرة، فى الوقاية، ولا وقاء.

وهكذا نجد الطير قد كـانت مسخرة فى الجو لسيرها، ومـسخرة للإنسان فى نفعها.

وقد خلقها الله تعالى مهيأة للطيران فى الفضاء، وجعل كل أعضائها مناسبة بين كـونها، فلم يخلق لهـا يدين، وخلق رجلين ليـمكن ارتفاعـها من الأرض، وكانت رجلاه واسعة، وأكثر قوته فى صدره، وكان قوتها حبا يبلع؛ ولذا كان لها منقار، ينقى مـا تختار، ولأن ما يبلع لا يكون فـيه تفتيت بالمضـغ، كانت حرارة الحوية هاضمـة، وجعل فى أجنحتها ريشـا قويا فى خوافيه وقـوادمه، حتى تكون الخوافى قوة للقـوادم وكانت الأجنحة، لجلب الهواء الذى يحـملها، وهى طائرة، فهى ترفرف بها لتجلبه، حتى إذا اسـتوى سارت كأنها تسير على مكان صلب، أو ماء.

وهذا معنى قوله تعالى: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللَّهُ﴾ فهو خلق فيـها هذه القوى التى تقوى بها على الطيـران، ومع ذلك حاطها بكلاءته، وحمايته، كـما أحاطها بفطرتها، تبـارك الله الخلاق العليم، وقد بين سبـحانه أن فى هذا الخلق آيات، لمن يعتبر ويستبصر، ويفكر فى خلـق الله تعالى وحكمته فقال تعالت قدرته: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ الإشارة إلى الخلق والتكوين والتسـخير، واللام فى قوله تعالى: ﴿لآيَاتٍ﴾، (لام) التـوكيـد أو الابتـداء بمعنى التـوكيـد، و(آيات)، أى دلالات قاطعة ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، أى الجماعة تتضافر على الحق وتطلبه، وتتهداه، وتتعرفه، ومن شأنهم الإيمان بالحق إذا بدت دلائله، وقامت براهينه، وكان التعبير بالمضارع فى قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ يعنى من شأنهم وحالهم الإيمان دائما، أما غيرهم فقد غـشيتهم غواشى الباطل وطمس عليهم الهـوى، فصاروا كالصم البكم الذين لا يعقلون ولا يدركون.

بعد ذلك بين سبحانه وتعالى نعمه على خلقه فى الأنعام التى يتمكنون منها بتأليفها وغيرها فقال تعالى:

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ ﴾.

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا ﴾، أى صير لكم من بيوتكم التى تتخذوها منها من الحجر والمدر، والآجر، واللبن، أى موضع سكون واطمئنان، فهم فى حركة دائبة دائمة كالكواكب والنجوم والأجرام السماوية، ولم يجعلكم فى سكون كالأحجار والجبال، ولو فى مظهرها وإن كانت ذاتها تمور، بل جعلكم فى مضطرب تتحركون وتنامون وتستقرون، فكان من نعمته عليكم أن جعلكم تسكنون وتعملون، فالعمل والسكن كلاهما نعمة من الله، ونرى من هذا التخريج أن جعل لكم ذلك السكن، والاطمئنان بعد اللغوب والتعب، كما أن بناء البيوت من موادها نعمة، وقد يقول قائل: كيف تكون نعمة أسبغها الله، والعبد هو الذى بناها، وتقول: إن النعمة فى أن مكنه من ذلك، وسخر كل شىء، فبعقله الذى خلقه الله تعالى فدبر وبنى واهتدى إلى أساليبها، والخلاصة أن النعمة فى أمرين:

النعمة الأولى ـ فى هدايته إلى البناء من مواده، وجعله مأوى، والثانى فى أنه جعله يسكن بعد الكرب والتعب، وهذا يشير إلى أن الراحة لا تكون إلا بعد جهد كما أن السكن لا يكون إلا بعد عمل هذه نعمة كبيرة، وهى نعمة الحياة العاملة الكادحة.

والنعمة الثانية ـ هى تمكين الإنسان من النعم، وهى الإبل والبقر والغنم، وقد ذكر الله سبحانه نعمة فيها بعد نعمة أكلها وتأليفها، وتسخيرها للإنسان فى حاجاته، فقال تعالى: **﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ﴾**، الظعن الارتحال والتنقل، وانتجاع مواطن الكلأ، واستخفافها هو طلب خفتها، أى تطلب لخفتها فالسين والتاء للطلب، **﴿ يَوْمَ ظَعْنِكُمْ ﴾**، **﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّن**

جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا﴾، كالأخبية والفساطيط، تستخفونها يوم ظعنكم، فهى بيوت محمولة، وتلك بخلاف البيوت المبنية من الآجر والأحجار واللبن على نحو ما أشرنا من قبل.

وهى خفيفة فى الظعن وفى الإقامة فإذا ظعنتم جعلتموها على ظهور الإبل أو الخيل ونحوها، وإذا أقمتم أنزلتموها من فوق ظهور الإبل، فأقمتم تبتغون الماء والكلأ ما شاء الله تعالى أن تقيموا، ثم ترتحلون.

ويشمل ذلك الذين يقيمون فى الخيام فى الصحراء، فإنها تكون موضع إقامة دائمة لهم، ويسمون «أهل الوبر»، كما يسمى سكان المدائن بـ«أهل المدر» كأهل مكة والمدينة والطائف.

ويثار هنا كلام، وهو أن الخيام والفساطيط، لا تتخذ من الجلود، وهى الأدم فقط، بل تتخذ من الأصواف والأوبار والشعر أيضا، فليس ما يؤخذ من الجلود هو ما يأخذ من الأدم فقط، بل ما يؤخذ من الأخبية، فى الأصواف والأوبار والشعر يؤخذ من الجلد أيضا؛ لأنه يجز منه أو يقص، وإنما خصت الأصواف وما يمثلها بالأثاث والمتاع، لأنها لا تؤخذ إلا منها، ولم تكن عند العرب تؤخذ من الأدم، وذلك هو الغالب فى عصرنا أيضا.

﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ الصوف هو للضأن والأوبار للجمال، والأشعار للمعز وهى يتخذ منها أثاث، وهى الثياب والفرش، وقوله متاعا، أى ينتفع فيه بالبيع والشراء والاتجار بشكل عام.

وأظن بأن المتاع هو ما يستمتع به بالنظر والزينة ونحو ذلك مما يكون متعة للإنسان، ونختار ذلك لسببين:

السبب الأول ـ أن الانتفاع بالاتجار جائز فى كل شىء حتى الإبل، ولحمها وعظامها وجلودها وإنما المذكور هو انتفاع شخصى بالاستهلاك لا بالاتجار.

والسبب الثانى ـ أن الله تعالى ذكر متعة النظر والبهجة، وطيب النعمة فى آية أخرى، فقال تعالى: ﴿أَثَاثًا وَمَتَاعًا﴾، أى يتخذون من الأصواف والأوبار والأشعار أثاثا وزينة، والزينة ليست حراما، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ... (٣٢)﴾ [الأعراف].

ولعله مما يرشح لهذا المعنى ويقويه تعالى: ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾، أى أن ذلك الاستمتاع بهذه النعم، وخصوصا الأثاث والمتاع إلى حين حتى يجيء وعد الله تعالى فيكون الحساب والعقاب والثواب.

كما أن البيوت تتخذ من الآجر والأحجار، ومن الأصواف والأوبار والأشعار والجلود تتخذ أيضا أكنان من الجبال ولذا قال تعالى:

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ (٨١)﴾.

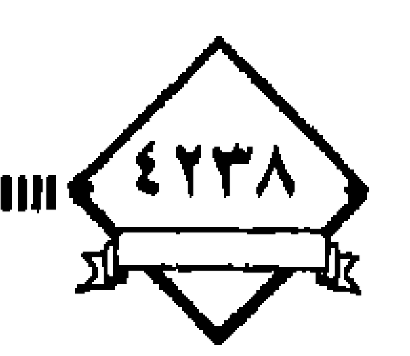
والله سبحانه وتعالى ﴿جَعَلَ﴾ بمعنى صيَّر، بأن خلق لنا أشجارا تظل الناس فى الحرور، وبيوتا يكون ظلها دافعا لوهج الشمس وفى الصحارى تجد الأشجار المظلة، والسحاب المطل، وقال سبحانه وتعالى مما خلق، ولم يذكر شيئا بعينه؛ لأن أنواع ما خلق وكان منه الظلال كثيرة، فالجنات تتفيأ ظلالها بالغدو والآصال والبيوت فيها ظلال، لمن يكون بجوارها، والغمام يكف وهج الشمس وحرارتها، والسحاب تظلل، والنبى ﷺ، وهو فى رحلته إلى الشام كانت السحاب تظله فى سيره، وحيثما انتقل انتقلت معه، وإن هذه الظلال نعمة من الله تعالى فى أرض صحراوية جدباء لا ماء يرطب جوها، ولا نسيم عليل يطفئ حرها؛ ولذلك كانت من نعم الله التى أنعم بها على سكانها الذين آتاهم الله تعالى مع ذلك جلدًا وقوة احتمال، فكانت هذه نعما أنعم الله بها عليهم ليستطيعوا أن يعيشوا وأن ينعموا فى خيراتها.

وإن هذه ظواهر طبيعية قد يقول قائل: ما النعمة فيها؟، ونقول فى الجواب عن ذلك: إنها نعم تغمرنا وتغمر سكان الصحارى ولا يحسون، ولكن إذا

حـرموها يعـرفون مـقدار الإنعـام، وهى أفعـال مخـتارة يريد وضع الأمـور فى مواضعها، وكل شىء عند الله تعالى بمقدار وبميزان محكم.

وقال تعالى: ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا ﴾، وهى الكهوف والمغارات، وأكنان جمع كن، وهو مـا يتقى بالاستتـار فيه تتبع الأعداء، وتربص المـتربصين، كما كمن النبى ﷺ هو وصاحبه أبو بـكر فى غار ثور ثلاث ليال سويا، وكما كان ﷺ قبل البـعثة يتعـبد فى غار حراء الليـالى ذوات العدد، وإن هذا كله يدل على أنها أكنان، إما استتاراً للعبـادة، أو فرارا من عدو متربص، أو كن من مطر غامر، أو اسـتظلال، ولماذا سمـاها الله تعالى أكنانـا، ولم يسمـها بيـوتا؛ لأن الناس لم يتخـذوها بيوتا يسـكنون فيهـا تكون مطمأنا وسـكنا لهم تسكن فيـها نفـوسهم، ويطمئنون بعد تعب ومكان راحة، لأن جبال البلاد العربية لم تكن موضع اطمئنان كالجبال الخضراء، فلم تكن مساكن تكون لسـترة حالهم، بل كانت أكنانا للاستتار من عـدو أو مطر منهمـر، أو اتقـاء لحرارة الشـمس أو نحو ذلك، وإذا كـان من العرب من ينحـتون من الجبـال بيوتا فارهـين كـما جاء ذلك فـى قـصـص القرآن الحكيم، فإن ذلك لم يكن عند أهل الحجاز ونجد ونحوها.

وقد مَنَّ الله تعـالى بما هيأهم به ومكنهم منه، وهو مـا ذكره بقـوله تعالى: ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ﴾، و(جعل) بمعنى صـيَّر وهيأ بأن مكـنكم من أن تصنعوا ذلك لأنفـسكم، و(السرابيل) جـمع سربال وهو القميص، وذكر أن هذه السرابيل نوعان نوع يتقى به الحر، فلا يكون عاريا يتعرض للجو اللافح، كما يـتعرض العراة من الزنوج الذين لم يتمكنوا من قمـصان يتقون بها الحـر، وقد قـيل إن السرابيل يتقـى بها الحر والبـرد، فكيف ذكر الحـر فقط، والجواب عن ذلك أن ذكـر اتقاء الحر تستـدعى لا محالة ذكر اتقـاء البرد، وإن لم يذكر بالنص فقد فهم بالاقتضاء، وقد ذكر سبحانه الدفـء من قبل فى قوله تعالى، ﴿ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ وإجابة الزمـخشرى بأن ذكر الحر ينـاسبهم



دون البرد لأنهم لا يحتاجون إلى اتقاء البرد، وعندى أن البلاد التى جوها قارى كبلاد العرب يكون بردها شديدا قارسًا.

والواقع أن الكلام كله فى اتقاء الحر، فذكر الظلال والبيوت والأكنان كل هذا فى سياق اتقاء الحر فكان المناسب أن يذكر فى مزايا السرابيل أن تقى من الحر.

والنوع الثانى من السرابيل وهو ما يتقى به البأس، وهو دروع الحرب، إذ البأس هو الحرب، كما فى قوله: ﴿ ... وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ... (١٧٧) ﴾ [البقرة] وأضاف سبحانه وتعالى البأس إليهم، لأنهم فى الجاهلية هم الذين كانوا يثيرونها حروبا شعواء، تدعو إليها العصبية الجاهلية، وتدفع الحمية غير المدركة العاقلة كحرب البسوس، وعبس وذبيان، وغيرهما مما كانوا يثيرونه من حروب، فلم تكن حروبا عادلة؛ ولذا أضيفت إليهم.

وإن هذه النعم كلها بتسخير هذه الأمور لهم، وتهيئتهم بالفطرة لها، وإن نعم الله تعالى لا تخص، وختم الله تعالى الآية بقوله تعالت حكمته: ﴿كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾، أى كذلك التى هيأ سبحانه وتعالى لكم ومكنكم، وهداكم بفطرتكم إليه من جعل بيوتكم سكنا ومطمئنا، وعن اتخاذكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم وإقامتكم، ومن اتخاذكم من أصوافها وأوبارها وأشعارها، أثاثا يكون زينة ومتعة، ومن اتخاذكم الظلال مما خلق، ومن جعل البيوت ومن اتخاذكم السرابيل والدروع.

كذلك الذى هيأ لكم تكون نعمه الكلية عليكم دائما ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾، أى تسلمون وجوهكم لله تعالى، وتتركون عبادة الأوثان لهذه النعم المتوالية عليكم، وأفرد سبحانه النعمة، وهى متعددة لأن المفرد المضاف يعم، ولأنها واحدة باعتبار مصدرها، وهو الله سبحانه وتعالى.

وقال تعالى بعد ذلك:

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٨٢) ﴾.

تقدير القول فإن علموا هذه النعم التى أسبغت عليهم، ومع ذلك كفروا فما عليك من كفرهم من شيء، و(الفاء) ما بعدها ترتب على ما قبلها، ﴿تَوَلَّوْا﴾، أى أعرضوا ونأوا بجانبهم، وأنكروا هذه النعم المتضافرة، فإن العذاب نازل بهم لا محالة، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات، لأنك قد بلغت وأنذرت، وإنما عليك التبليغ البين الواضح الذى لا يمارى فيه عاقل مدرك، و(الفاء) فى ﴿فَإِنَّمَا﴾ واقعة فى جواب الشرط، و(إنما) من أدوات القصر، ﴿عَلَيْكَ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾، أى ليس عليك إلا البلاغ الواضح، وإنك لا تهدى من أحببت، ولكن الله يهدى من يشاء.

جزاء الكفر بنعمة الله

قال تعالى:

يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ (٨٣) وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٨٤) وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (٨٥) وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ (٨٦) وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٨٧)

ساق الله تعالى ذكر ما أنعم به عليهم، والإنسان كله فى فيض نعمة الله تعالى من يوم حمله جنينا فى بطن أمه إلى أن يولد، ومن بعد أن يولد هو فى حياطة الله تعالى ورحمته، إن مرض كشف عنه الضر، ومنحه العافية، وإذا كان

فى المخاطر تحطه رحمة الله تعالى، وهو فى مأواه، وملبسه، ونعيمه وراحته بعد تعبه فى نعم الله تعالى، وهو يعرف هذه النعم، ويعرف أنها من عند الله تعالى، وبفضل منّه وكرمه، والعرب فى عصر النبوة وقبله، كانوا أعرف الناس فى جيلهم لربهم، فهم كانوا يعرفون الله تعالى الذى خلق الكون وما فيه ومن فيه وحده، وهو الواحد فى ذاته وصفاته، ولكنهم بتسلط الأوهام يعبدون معه الأوثان؛ ولذا قال سبحانه:

﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ (٨٣) ﴾.

هم يعرفون الله ومع ذلك يشركون، ويعرفون أنه الضار النافع، وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما وإذا كانوا فى شدة لا يجأرون إلا إليه، ويعرفون هذه النعم واحدة واحدة ثم ينكرونها فما هى هذه المعرفة؟ إن للمعرفة مراتب ثلاث، تبتدئ بتصور الأمور والوقائع، ومنها النعيم فيتصور أن الله رازقه وخالقه، فإذا تجاوز هذه المرتبة، انتقل من التصور إلى الاعتقاد بالصحة، فإذا اجتاز هذه المرحلة انتقل إلى المرحلة العليا وهى الإيمان، والإيمان مراتب، مرتبة التصديق الجازم المطابق للواقع عن دليل، ثم مرتبة الإذعان، والخضوع لما اعتقد ثم ينتقل إلى أعلى المراتب، وهى مرتبة العمل.

وهذه هى المعرفة الكاملة، ولقد قرر سقراط فى الأخلاق أن المعرفة هى مقياس الفضيلة والرذيلة وهى المعرفة فى أعلى درجاتها التى يصحبها عمل، وكمال الإيمان تصديق وإذعان وعمل عند العلماء المدركين.

وقوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ يبدو أنها مرتبة المعرفة الأولى، التصوير، ثم التصديق من غير إيمان وإذعان؛ ولذا ينكرونها، أى أنهم لا يذعنون للاعتقاد بها، وتبدو فى أعمالهم، وثم فى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ لبعد ما بين مرتبة المعرفة والإنكار العملى، ولقد قرر سبحانه أن أكثر الكافرين هم من هذا الصنف الذى ينكر بعمله ما عرفه بتصوره وصدقه بواقعه؛ ولذا قال: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ



محمد أبو زهرة

الإمام الجليل

الإمام الشيخ محمد أبو زهرة غنى عن التعريف، فقد أثرى المكتبة العربية بموسوعته الإسلامية الشاملة، التى كان ختامها ذلك التفسير العصرى للقرآن الكريم.

ولم يكن - رحمه الله - فى تفسيره مقلدا لمن سبقوه أو مجرد ناقل لما كتبوه، ولكنه نظر إلى العصر الذى تعيشه نظرة العالم البصير، والحكيم المدقق المتفرد فى أسلوبه، فغاص فى بحر القرآن الكريم ليوضح ما غمض على أهل العصر من معان، وما يحتاجون إليه من أحكام؛ معتمدا على السنة النبوية الصحيحة والمأثور عن الصحابة- رضوان الله عليهم- من قول أو عمل.

فجاء هذا التفسير نفحة إلهية ومنحة ربانية تمكن فيه مؤلفه أن يساير عصره من حيث الحاجة إلى الأحكام الشرعية وصحتها، ولغة العصر وبساطتها، والتعبيرات اللغوية ودقتها، بما لا يدع القارئ فى حاجة إلى بيان أو توضيح، فكان بحق «زهرة التفاسير».

٢٥٠ قرش